اقرأ

طه الحاجري

قصر الرشيد

دار المعارف بمصر

قصر الرشيد

طه الحاجري

قصر الرشيد

اقرأ ٧٤
دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

اقرأ ٧٤ — يناير سنة ١٩٤٩

تمهيد

يمثل هارون الرشيد فى أذهان الناس وأخيلتهم صورة الترف البالغ المفتن شتى الأفانين فى إرضاء النزوع الإنسانى نحو المتع المختلفة حسية ومعنوية ، ويرمز عندهم إلى كل ما تثيره رغباتهم المكظومة وخيالاتهم المحمومة ، فتجمع بعضه إلى بعض ، وتنسق شيئاً منه إلى شىء ، فإذا مجموعات من الصور وألوان من الفن ، ليست فى حقيقة أمرها إلا نوعاً من مذاهب النفس الإنسانية فى التعبير عن نزعاتها الطامحة ، وشهواتها الجامحة ؛ ثم أسندت إلى عصر الرشيد ، وجعلت فى قصر الرشيد .

وكان من مظاهر ذلك هذه الطائفة الكبيرة من القصص الشعبية التى تصور ذلك الترف ، سواء منها ما عرض فى معارض أنيقة رفيعة ، أم ما سيق إلينا منها فى مباذل وضيعة ؛ وسواء منها ما اتخذ الفصحى وسيلته ، أم ما جاء بلغة العامة غير متكلف ولا متصلف . وقد كان الوراقون ما يزالون فى أيام الرشيد وبعده حريصين على استغلال هذه النزعة عند الناس ، فما يفتأون يزجون إليهم القصة وراء القصة ، تتملق أخيلتهم ، وتتجاوب وشهواتهم ، مما لا يزال لدينا بقية صالحة منه مبثوثة فى كتب المحاضرات . ومن هذا القبيل تلك القصص التى اشتمل

عليها « ألف ليلة وليلة » عن الرشيد ومجالى قصره ، فافتتن الناس بها ، وأخذ كثير من كتاب القصص فى أوربا يصدرون عنها ويستلهمونها فيما هم بسبيله من تصوير الحياة الشرقية المترفة فى بغداد أيام الرشيد .

على أن الواقع أن عصر الرشيد كان أول عصر أتيح للدولة الإسلامية فيه أن تبلغ الغاية فى اصطناع صور الحضارة المختلفة ، والظهور بالمظهر الجديد بتلك الامبراطورية الواسعة . لقد فرغت من الفتوح التى كانت تستغرق تفكيرها وتستبد بتدبيرها وتتوزع جهودها ، واستقرت الأمور فى معظم تلك الأقطار التى فتحتها واستطاعت أن تفرض عليها نظمها وتسبغ عليها ألوانها ، وتربط بينها وبينها برباط الدين واللغة ، فإذا هى جزء من كل . ثم هى الآن — فى العهد العراقى — قد انتهت إلى جانب ذلك من إقرار سلطانها بعد الانقلاب العباسى ، وفرغت — أو كادت — من خصومها الذين خلفتهم على الحكم : تعقباً وتشريداً وتنكيلا ، حتى ما تكاد تعبأ كثيراً بما قد يكون هنالك من نزعات كامنة أو حنين إلى العهد الأموى ، يتخذ أحياناً صورة التمرد عليها والمناصبة لها . فقد استطاعت الدولة فى سنواتها الأولى أن تخمد الثورات التى هبت عليها من هنا وهنا ، تريد أن تعصف بها ، وهى لا تزال فى طور نشوئها ،

ولكنها صمدت لها وغالبتها وقهرتها ، فمكنت بذلك لنفسها ، فإذا هى راسخة شامخة ، تنحنى أمامها الرؤوس وتتطامن النفوس ، وتثير فى قوم الرهبة ، وفى آخرين الإعجاب والمحبة .

فما إن انتهت أيام المنصور ، وخلفه المهدى ، حتى جعلت الدولة تأخذ زينتها ، وتحيط نفسها بمظاهر الحضارة المختلفة تلتمسها من هنا وهنا . حتى إذا كانت أيام الرشيد فقد تمت للدولة كل أسباب الدعة ، فالطمأنينة تسودها من كل ناحية ، والثروة تتدفق عليها من كل جانب ، والرعية هادئة راضية أو كالراضية ، والخليفة شاب لم يجاوز العشرين إلا بقليل ، يملأ الشعور بالحياة نفسه ويغمر حواسه ؛ وقد نشأ فى قصر أبيه المهدى ، وشهد فيه مظاهر الترف الحسى والمعنوى ، منذ السن التى تتفتح فيها العقول وتنشط فيها الأخيلة . ومن حول الخليفة حاشية تنزع ذلك المنزع ، وتنحو إلى تلك الغاية ، وترى فيها المثل الأعلى الذى تستهدفه . فلا جرم بلغت الدولة فى ذلك العصر الذى امتد ثلاثاً وعشرين سنة ، أوجاً رفيعاً يمثل الحضارة الإسلامية فى أزهى ألوانها وأبهى صورها وأروع مجاليها ؛ ولا جرم كانت بذلك مصدراً خصيباً يمتح منه الخيال ، ويصدر عنه الفن ، ويتخذ منه القصص مادة لا يكاد يفرغ منها .

١

كانت الدولة تتمثل فى الخليفة ومن ورائه الوزير ورؤساء الدواوين ، فهؤلاء هم مركز الدولة ومظهرها . فلا جرم كان قصر الخليفة هو المركز الأول الذى تتمثل فيه مظاهر العظمة والسمو التى أصابتها الدولة ، وتبرز فيه وجوه الحضارة التى وصلت إليها ، وألوان الترف الذى أتيح لها .

وكذلك كان قصر الخليفة يمثل دائماً ما بلغته الدولة ، ويصور اللون الحضارى الغالب عليها ، ويبرز الخصائص التى تتميز بها . فقد كان القصر فى أيام الأمويين عربياً خالصاً أو كالخالص ، سواء كان الخليفة يميل بطبيعته إلى اصطناع الحياة اللاهية . أم كان من أهل الجد وإيثار الوقار ؛ فإذا اتخذ اللهو فكما يتخذه سراة الحجاز وأشراف المدينة ، لهو عربى فى صورته العامة مهما داخله فى بعض نواحيه من عناصر أجنبية . فأما إذا ولى القصر رجل كالوليد ، آثر ألوان الحياة الفارسية ، وطبع قصره أو حاول أن يطبعه بطابعها ، وجعل من ندمائه إسماعيل بن يسار وعبد الصمد بن عبد الأعلى ومن إليهما من أهل النزوع الفارسى ، واستقدم المغنين وأسرف فى حشد

قصره بالجوارى والمغنيات ، وفتن بشعراء الكوفة الذين يصورون تلك الحياة ، كحماد بن يسار ، وشراعة بن الزندبود ، ومطيع بن إياس ، ومن إليهم ، فإنما كان ذلك شيئاً نكراً وشذوداً فى تلك الروح العربية ، وتنكراً لذلك الطابع الذى يطبع القصر الأموى ، وإن كان فى حقيقة أمره إرهاصاً بما كانت الأمور سائرة إليه .

لقد كانت الدولة الأموية عربية ، فكان قصر الخلافة صورة عربية ، لا يكاد يداخله من الألوان الأخرى إلا الشىء لا يعبأ به ، ولا أثر له فى طابعه ، أو ما لا بد منه ، ككتاب الديوان ، فقد كانت الضرورة تحتم أن يكونوا من غير العرب . ومع ذلك فقد استطاعت الحياة العربية أن تحمل الكثير منهم على أن يصطنع الأسلوب العربى فى صور حياته المختلفة ، مسايرة للسلطان السائد .

ذلك هو القصر فى أيام الأمويين ، فإذا كان الانقلاب العباسى الذى قام على عناصر فارسية ، واتجه وجهة فارسية ، فقد أخذ اللون الفارسى يطبع القصر بطابعه ، فالحاشية تغلب عليها الفارسية غلبة ظاهرة ، والأساليب المصطنعة فى تنظيم الحياة فى القصر مشتقة من النظم الفارسية ، وقصر باب الذهب نفسه الذى بناه المنصور وأنفق عليه النفقات الطائلة إنما بنى

على أنماط البناء الفارسى ، وتمثال الفارس المنصوب فوق قبة القصر ، والذى ذهبت أوهام المتأخرين فيه كل مذهب ، إنما هو فى حقيقة مظهر من مظاهر تلك الروح الفارسية فى عمارة القصور ، كتمثال السفينة المنصوب فوق بعض القباب فى مصر ، فهو مظهر من مظاهر الروح المصرية القديمة السارية .

ولكن الأمر لم يعد هذا فى أيام المنصور إلى ما نعرف من مظاهر الترف وأسباب اللهو بعد ، فذلك أمر يخضع للظروف القائمة . ذلك أن الدولة كانت فى شغل شاغل بتوطيد أساسها وتأييد أركانها ، ومقاومة الخارجين عليها ، وإطفاء الفتن المشتعلة فى كل مكان ضدها . فكان الجد والحزم والصرامة هو طابعها الذى تتسم به فى تلك الفترة . وكذلك كان الأمر فى قصر المنصور ، « لم ير فيه — كما يحكى ذلك أحد الكتاب المتصلين به المداخلين لقصره — لهو قط ، ولا شىء يشبه اللهو واللعب والعبث ، إلا يوماً واحداً ، فإنا رأينا ابناً له يقال له عبد العزيز . . قد خرج على الناس متنكباً قوساً ، متعمماً بعمامة ، متردياً ببرد ، فى هيئة غلام أعرابى ، راكباً على قعود ، بين جوالقين فيهما مقل ونعال ومساويك ، وما يهديه الأعراب . فعجب الناس من ذلك وأنكروه . فمضى الغلام حتى عبر الجسر ، وأتى المهدى بالرصافة ، فأهدى إليه ذلك . فقبل المهدى ما فى



« فقام يمشى رويدا ، حتى أشرف عليهم فرآهم ، فلما بصروا به تفرقوا »

(انظر صفحة ١٢)

الجواليق وملأها دراهم ، فانصرف بين الجوالقين ، فعلم أنه ضرب من عبث الملوك » .

ذلك هو لون اللهو فى القصر أيام المنصور ، لو جاز أن يعتبر ذلك لهواً ، لا يكاد يؤذن بأكثر منه . وقد حكى حماد التركى ، وهو أحد خدم المنصور ، قال : « كنت واقفاً على رأس المنصور ، فسمع جلبة فى الدار ، فقال : ما هذا يا حماد ؟ انظر ! فذهبت فإذا خادم له قد جلس بين الجوارى ، وهو يضرب لهن بالطنبور ، وهن يضحكن . فجئت فأخبرته . فقال : وأى شىء الطنبور ؟ فقلت : خشبة من حالها وأمرها . . . ووصفتها له ، فقال لى : أصبت صفته ، فما يدريك أنت ما الطنبور ؟ قلت : رأيته بخراسان . قال : نعم هناك ! . ثم قال : هات نعلى . فأتيته بها ، فقام يمشى رويداً ، حتى أشرف عليهم فرآهم ، فلما بصروا به تفرقوا . فقال : خذوه ! فأخذ . فقال : اضرب به رأسه ، فلم أزل أضرب به رأسه حتى كسرته ، ثم قال : أخرجه من قصرى ، واذهب به إلى "حمران" بالكرخ ، وقل له يبيعه » .

فإذا كانت أيام المهدى فقد استقرت أمور الدولة ، وهدأت الثائرات من حولها ، فجعلت مظاهر الترف المختلفة تداخل القصر ، وبدأنا نرى الخليفة يستقدم المغنين والملهين ويشجعهم

ويجزل العطاء لهم ، ويملأ نفوسهم رضًى وطمأنينة وغبطة ، ورأيناه يجعل كثيراً من أصحاب مجلسه من أهل النادرة والعبث والمضاحيك ، وإن يكن فى شىء من التحفظ والتجمل والرعاية . ولكنه على كل حال قد أسبغ على القصر لوناً زاهياً ، وبعث فيه روحاً مرحة جديدة ، لم تلبث أن قويت وامتدت وتعددت مظاهرها ، واختلفت أشكالها وصورها ، فى أيام ابنه هارون الرشيد .

والقصر فى أيام الرشيد يعبر تعبيراً صادقاً عن حالة الرخاء المادى ، والتقدم المعنوى والأدبى ، اللذين بلغتهما الدولة الإسلامية فى عهده . كما يعبر — إلى جانب هذا — عن ذلك الميراث الساسانى الذى استطاع أن يفرض نفسه فرضاً على كثير من نواحى الحياة الجديدة ، ولا سيما حياة القصور فى بغداد . ثم هو يعبر بعد ذلك عن شخصية الرشيد نفسه ، والصفات المكونة لهذه الشخصية ، سواء فى ذلك الصفات التى ترجع إلى مزاجه وطبيعته ، أم الصفات التى يصدر فيها عن البيئة التى أنشأته ، والتربية التى أخذ بها ، والظروف المختلفة التى عاناها .

فلقد كان لاستقرار الأمور أثره الكبير فى موارد الدولة ؛ فإن هذه الفتن والثورات والاضطرابات التى كانت أنحاء العالم الإسلامى مضطربة بها لم تكن تستنزف هذه الموارد بما تتكلفه الدولة إزاءها من تجهيز الحملات المختلفة والإنفاق عليها

لإحباطها ، فحسب ، ولكنها كانت مع ذلك عائقاً كبيراً دون أن تبلغ هذه الموارد غايتها ، بتأثيرها تأثيراً مباشراً على تحصيل خراج الأقاليم والعشور المفروضة عليها وما إلى ذلك . وقد كانت السنة المتبعة أن ينفق من هذه المحصلات على حاجات الأقاليم الإدارية وغيرها ، كل إقليم مما يحصل منه ، ثم يحمل باقى ذلك إلى بيت مال الخلافة ، لينفق منه على دار الخلافة ودواوين الدولة ومرافق الجزء الشرقى من بغداد .

فلقد كان لا بد إذن — وقد استقرت الأمور وهدأت الطوائل — أن يتدفق المال على بغداد ، وأن يكون لانتظام موارد الدولة ووفرتها أثرهما فى مظاهر الحضارة وصور الترف فى هذه المدينة ، وخاصة فى قصر الخليفة . وقد قدر بعض المؤرخين معدل ما كان يرد على الرشيد سنوياً من خراج الأقاليم ، بعد أن يستوفى كل إقليم حاجاته من خراجه ، بأربعمائة مليون درهم ، أو ما يبلغ نحو ثمانية عشر مليوناً ونصف مليون من الدنانير . ولهذا ولا ريب دلالته على صلاح الحالة العامة . ومن أجل ذلك نرى الرشيد يأمر بإبطال ما كان عمال الخراج يصطنعونه منذ العصور القديمة من العنف بالناس وأخذهم بألوان التعذيب وصنوف التنكيل فى تحصيل ما عليهم من ضرائب الخراج أو العشور أو الجزية ، فلم تكن بالدولة

حاجة إلى مثل هذا الأسلوب بعدُ .

وهناك مورد آخر كان لاستقرار الأمور أثره فيه :

فبعد أن اطمأنت الدولة إلى سلامتها الداخلية ، وأمنت – إلى حد كبير – جانب الأحزاب المختلفة من الأمويين والعلويين والأجانب الثائرين ، أخذت تتجه إلى خصمها الخارجى القائم على حدودها الشمالية ، بتنظيم الغزوات إلى بلاد الروم لإرهاقها ، فى كل عام غزوة أو غزوتين : الصائفه والشاتية ، وبدأت هذا التنظيم بأن نقلت مركز الغزو إلى تخومها الشمالية ، قريباً من الميادين التى تفتتحها ، فأنشأت هنالك إقليماً خاصّاً ، له نظامه الخاص وإدارته الخاصة ، سمى إقليم العواصم ، يجتمع فيه الغزاة ويفصلون عنه ، ثم يرجعون إليه ويعتصمون به ، ويكون لهذا الإقليم تنظيم هذه الغزوات والتدبير لها . وقد فتح للدولة بذلك مورد مالى جديد ، لعلها لم تكن تقدره ، بما كان الغزاة يعودون به من غنائم وسبايا ، وبما كانت دولة الروم تؤديه إلى الخليفة فى بعض الأحيان من جزية أو فداء ، عن بعض من أسر أو سبى من الأشراف والنبلاء ، وقد بلغ ما أداه ملك الروم من ذلك ذات مرة خمسين ألف دينار .

ويبدو أن هذا المورد كان من الموارد الخاصة ببيت مال الخاصة ، إذ كان على الخليفة أن يتولى الإنفاق على هذه

الغزوات من ماله الخاص ، فيما يظهر ، فإذ كان الأمر كذلك كانت غنائم هذه الغزوات خالصة له .

وفوق ذلك فقد كان بيت مال الخاصة عامراً بما كان يتدفق عليه من ضياع الرشيد فى العراق والأهواز والجزيرة والشام والثغور ومصر ، ثم مما كان أهل الذمة يؤدونه من أموال الجزية المضروبة عليهم . فقد كان ذلك — فيما يبدو — من مخصصات الخليفة ، ثم من المصادرات التى كان يلجأ إليها الخليفة فى بعض الأحيان ، كما صنع بعد نكبة البرامكة . وقد ذكر الطبرى « أنه لما مات محمد بن سليمان وجه الرشيد إلى كل ما خلفه رجلا أمره باصطفائه ، فأرسل إلى ما خلف من الصامت من قبل صاحب بيت ماله رجلا ، وإلى الكسوة بمثل ذلك ، وإلى الفرش والرقيق والدواب من الخيل والإبل ، وإلى الطيب والجوهر ، وكل آلة ، برجل من قبل الذى يتولى كل صنف من الأصناف . فقدموا البصرة ، فأخذوا جميع ما كان لمحمد ، مما يصلح للخلافة ، ولم يتركوا إلا الخرثى الذى لا يصلح للخلفاء ، وأصابوا له ستين ألف ألف ، فحملوها مع ما حمل . . . واصطفى ضياعه ، وفيها ضيعة يقال لها برشيد ، بالأهواز ، لها غله كثيرة » ، إلى غير ذلك من أموال الخدم والموالى الذين يقضون نحبهم ، دون أن يكون لهم وارث من ذوى

عصبتهم أو ذوى أرحامهم .

وهكذا نرى إلى أى حد كانت موارد بيت مال الخاصة كثيرة موفورة ، ولعلنا نستطيع إلى جانب ما ذكرنا أن نتصور مبلغ هذا الثراء إذا عرفنا أن الرشيد خلف يوم مات ثمانية وأربعين مليون دينار ، بالرغم من حياة البذخ التى كان يحياها ، ومظاهر الترف المختلفة التى كان يحيط نفسه بها ، والصلات الكثيرة الوفيرة التى كان يصل بها أصحابه وأهل مجلسه والوافدين عليه ، والتى جعله مضرب المثل فى السخاء والأريحية ، أى أن معدل ما كان يفضل عن نفقاته مليونا دينار سنويًّا تقريباً .

فلا جرم استطاع الرشيد أن يبلغ بقصره ذلك المبلغ الذى أثار الأخيلة ، والذى نحاول أن نتعرف فى هذا الحديث صورة صحيحة عنه .

وكان إلى جانب الرشيد وفى بطانته جماعة نشأوا على الترف ؛ وقد كانت المثل الفارسية القديمة ، وصور حياة القصر فى عهد الملوك الساسانيين ، مع ما تحيطها به الأخبار والأقاصيص مما يعظمها ويهول منها ، ماثلة فى أذهانهم ، حاضرة دائماً فى أخيلتهم . وإذ كانوا لم يعتبروا هذه الدولة التى يقومون عليها إلا صورة إسلامية من ذلك الملك الفارسى الزائل ، وإحياءً لتلك الدول الإيرانية القديمة التى أديل منها ، ولكنها بقيت فى

حقيقتها ماثلة من وراء تلك الدولة القائمة ، وإن تردت بذلك لبوساً غير لبوسها ، فاصطنعت ديناً غير ذلك الدين ولغ غير تلك اللغة ، وإذ كانوا هم أصحاب الأمر فى هذه الدولة ، فقد كان لا بد لذلك من أن ينتج أثره ، فيتخذ قصر الرشيد الذى تتمثل فيه هذه الدولة تلك الألوان والرسوم والمظاهر التى كانت ماثلة فى أذهانهم عن ملوك الفرس الأقدمين ، وأن تكثر هذه المظاهر وتتضاعف وتتعقد قدر ما بلغ إليه الملك فى هذه الدولة الجديدة التى ورثت دولة الفرس وخصيمتها دولة الروم جميعاً . وقد كان ذلك جديراً بأن يثير زهو هذه البطانة ويرضى مشاعرها القومية التى قامت هذه الدولة عليها ، واستمدت قوتها منها .

ومنذ أوائل العهد بهذه الدولة التى غلب عليها الطابع الفارسى ، بطبيعة الظروف التى لابست قيامها ، نرى العوامل المختلفة تعمل جادة دائبة فى إسباغ تلك المظاهر عليها ، حتى تكون فى الخارج صورة منتزعة من ضمائر الفرس ونزعاتهم وأهوائهم ، فنرى رجلا كابن المقفع يجعل الهم الأكبر له أن ينقل إلى العربية ، لغة هذه الدولة الجديدة ، الآثار الرئيسية الفارسية التى تصور حياة تلك الدول ورسومها وتقاليدها ومظاهر بطولتها والسنن الخاصة بملوكها وذوي الشأن فيها . وما كتاب ككتاب التاج وكتاب الآيين — ولنا أن ندعى العلم بموضوعهما وشىء

من منهجهما — إلا شيء من هذا النحو ، جاء من هذه السبيل ، وأريد به — إلى جانب إعزاز القومية الفارسية وإحيائها والنهوض بها وإمدادها بما يثيرها ويزكيها — أن يؤدى إلى تلك الدولة ميراث أسلافها ، حتى تتخذ خطتهم وتسير على منهجهم وتهتدى بهديهم ، وأن يقدم إلى القصر طائفة من السنن التى كان يتميز بها القصر الفارسى القديم ، فيرى فيه الشعب صورة من صور المجد الذى كان للملوك الأولين ، كما يرى فيه صورة من أخيلته ومثله الراسخة فى أعماقه ، النابعة من أقوى مشاعره وأشدها استهواء له.

وقد استطاع قصر الرشيد أن يحقق هذه المثل ، ويرضى هذه الأخيلة ، ويمثل ألوان الترف المختلفة التى أتيحت له . وقد مكن له منها أشد التمكين ، هذا التطور البعيد المدى الذى بلغته الحياة الإسلامية فى شتى جهاتها المادية والأدبية والفنية والعلمية ، فاستطاع أن يفتن من كل ذلك فنوناً رائعة .

٢

ونحن إذ نتتبع الأسباب والملابسات التى أتيحت لقصر الرشيد ، ومكنت له من أن يتبوأ ذلك المكان الرفيع . لا نستطيع أن نغفل الإشارة إلى عامل يعتبر من أول هذه العوامل ، وهو شخصية الرشيد ، فقد كان لهذه الشخصية بمكوناتها المختلفة أثرها الكبير فى الوصول بذلك القصر إلى تلك المنزلة المرموقة فى الحياة العقلية والفنية ، وإلى أن يكون له ذلك الأثر فى توجيههما .

فها هو ذا شاب يخلص إليه ذلك الملك العريض والسلطان البعيد ، وهو لم يتجاوز العشرين إلا بقليل ، وهى السن التى يتفتح فيها الخيال ، ويتوثب فيها العقل ، وتشتد الصبوة ، وتجمح العاطفة ، وتثور الرغبات عنيفة ملتهبة نحو المثل العليا ، لا يكاد يحسب صاحبها أن شيئاً ما يستطيع أن يحول بينه وبين تحقيقها ، فهو يعيش من شبابه فى عالم ما يزال يدنى له البعيد حتى كأنه فى متناول يده ، فما بالك حين تجتمع إلى شرة الشباب شرة الملك والسلطان ؟ !

وهو قد نشأ فى قصر أبيه المهدى . والمهدى — كما أشرنا

من قبل — كان أول من عنى من خلفاء هذه الدولة بإبراز مظاهر الترف وألوان الفن وصنوف اللهو ، يعمر بها قصره ، ويزين بها مجالسه . ومهما كان حرصه على أن ينشأ أبناؤه — ولا سيما موسى وهارون — نشأة أدنى إلى الجد ، وأبعد عن تلك الأجواء التى كان يخشى أن ينزلقوا فيها ، فلم يكن هذا الحذر ليغنى شيئاً ، فقد اتصل هارون — منذ أخذت مشاعره تتفتح — بتلك الأجواء الفنية اتصالا مستمراً ، سواء فى الحرم حيث نشأت أخته علية ، وقد جعلتها هذه النشأة من صواحب الصنعة المحكمة فى الغنا ، مع م‌اج فنى مرهف ؛ أم فى مجالس الغناء ، ولا سيما فى دار إبرهيم الموصلى ، وقد كان منذ كان أميراً وثيق الصلة به ، كثير الملازمة له .

وهكذا نرى أن شباب الرشيد كان شباباً محفوفاً بكل ما يثير العاطفة ويلهب الحس ، فيزيده ذلك سكراً إلى سكر ، ونشوة إلى نشوة ، فلا جرم كان لهذا الشباب الذى اجتمعت له هذه الحوافز ، ثم أتيح له وهو فى عنفوانه الملك العريض والسلطان البعيد ، أن يمضى إلى غاية ما يصوره له خياله ، وتزينه له أهواؤه

لى جانب كل هذه العوامل كامل كانت هنالك طبيعة الرشيد التى أعانتها وتلاءمت معها ، فقد كان — فيما يبدو — رجلا

عصبي المزاج ، سريع الانفعال ، حاد العاطفة ، قوى الاندفاع نحو ما ينفعل به ، شديد الشعور بالحياة من جميع جوانبها ، عظيم الإقبال عليها والنهم إليها ، استجابة لهذا الشعور القوى بها ، كما كان سريع التأثر بكل ما يثير عواطفه الدينية أو يمس أوتاره الروحية . ومن ذلك كان الناس يرون فيه رجلا متناقضاً ، « من أغزر الناس دموعاً وقت الموعظة ، وأشدهم عسفاً فى وقت الغضب والغلظة » ، كما يقولون فى وصفهم له .

كان يقرب الزهاد والنساك ، ويصغى إليهم ، فلا يلبث أن يحس بعظاتهم تصل إلى قلبه ، فإذا هو منفعل بها ، قد ملكته الخشية ، وأخذته الرقة ، وغلبته دموعه . أدخل ابن السماك عليه ذات مرة ، عل رغبة منه أن يستمع إليه ، فما إن أخذ يذكره الآخرة ، ويقول له : يا أمير المؤمنين ! اتق الله وحده لا شريك له ، واعلم أنك واقف غداً بين يدى الله ربك ، ثم مصروف إلى إحدى منزلتين لا ثالث لهما : جنة أو نار ، حتى بكى الرشيد إلى أن اخضلت لحيته ، وحتى أشفق أهل المجلس عليه . وكذلك كان شأنه حين يسمع شعر أبى العتاهية فى الزهد والموعظة ، كما حدث حين سمع قصيدته :

خانك الطرف الطموح   أيها القلب الجموح

أو حين أنشده قوله :

لا تأمن الموت فى طرف ولا نفس　　إذا تسترت بالأبواب والحرس
واعلم بأن سهام الموت قاصدة　　لكل مدّرع منا ومتّرس
ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها　　إن السفينة لا تجرى على اليبس

ويقول ابن جرير الطبرى إنه كان « يصلى فى كل يوم مائة ركعة إلى أن فارق الدنيا ، إلا أن تعرض له علة ؛ وكان يتصدق من صلب ماله فى كل يوم بألف درهم بعد زكاته ، وكان يحج عاماً ويغزو عاماً » .

هذا الرجل الذى يراه الناس فى هذه الصورة : مرهف الحس الدينى ، شديد التقوى ، متحرياً لأوامر الدين ، يطيل الصلاة ، ويكثر من حج بيت الله ، ويعطف على ذوى الحاجة والمتربة ، لا يلبث الناس أن يروا فيه رجلا سادراً فى لهوه ، منغمساً فى أسباب اللذة والمتعة ، منصرفاً إلى شهواته وصبواته ولذائذه ، مفتنًّا فى تحقيقها وإحاطتها بألوان الزينة والزخرف ، قدر ما تمكن له وسائله الكثيرة وأسبابه الموفورة . ثم هم يرون فيه مع هذا أيضاً رجلا عنيفاً صارماً شديد البطش سريع المؤاخذة .

وليس فى ذلك كله شىء من التناقض إلا ما يبدو فى ظاهر الرأى ، فإنما هذه كلها مظاهر مختلفة لذلك المزاج الحاد الشاعر بما حوله شعوراً قوياً ، المنفعل بوجوه الحياة المختلفة انفعالا شديداً ، النزاع إلى الامتزاج بهذه الحياة وتحقيق أوفر نصيب

منها، فهو يقبل به على جميع ما يحقق له حيويته ويرضى جوانب مشاعره ، أشد الإقبال ، سواء فى ذلك الجانب النفسى أم الجانب الحسى ، فهو جاد عنيف فى الجد ، عابث مسرف فى العبث ، تنفجر عواطفه الدينية إذا لمست أوتارها لمسة خفيفة ، وينفجر غضبه بالعسف والعنف إذا أثاره مثير ، وتنفجر شهواته إذا عرض لها أقل إغراء وأدنى استهواء . وقد أعان ذلك المزاج على أن يبلغ هذه الغاية ما ذكرنا من اجتماع آثار تلك النشأة إلى شرة الشباب وشرة السلطان .

على أنه كان لذلك الحس المرهف المترف مظاهر أخرى فيما نحن بصدد التعرف إليه من تأثير شخصيته فى قصره وفى ألوان الحياة فيه ، وسيتاح لنا أن نعرض لبعض ما يصور لنا هذه الشخصية من جهة اتصالها بهذه الفنون من حياة القصر ، حين نأخذ فى تصوير هذه الحياة . ولكن لا بأس من أن نتعجل القول هنا — ما دمنا فى الكلام عن شخصية الرشيد — بالإشارة إلى بعض الصفات التى تصدر عن مثل ذلك المزاج وتتأثر به .

ومن ذلك أنه كان رجلا ذواقاً ، يستطيع أن يميز بين جيد الصور الفنية ورديئها ، صحيحها وزائفها . وكان — ولا ريب — يدين بذلك لتلك الصفات أو العوامل التى ذكرناها . ولسنا بحاجة إلى أن نبين هنا ذلك فيما يتصل بالشعر ، فقد كان

درسه له ، وعناية أبيه المهدى برواته ، وأخذه أبناءه بالنظر فى عيونه ، مما مكن له أن يكون ناقداً صحيح البصر ، كما قد نعرض لذلك بعد . ولكنا نريد أن نتعجل القول هنا فى ذوقه الفنى ، فيما يتصل بالغناء والموسيقى ، إذ نرى أن ذلك الذوق جعل يرتفع به إلى منزلة ابن جامع وإبرهيم الموصلى ، من أئمة المغنين فى عصره :

اقترح ذات مرة فى مجلس من مجالس الغناء فى قصره على إبرهيم الموصلى أن يغنى فى شعر عينه له ، فتغنى ، والرشيد من وراء الستائر يتبعه بأذنه الموسيقية المرهفة ، فيدرك أخطاءه . فلما فرغ من غنائه ، قال له صاحب الستارة ، عن الرشيد :

– مرعى ولا كالسعدان ، أخطأت فى موضع كذا ، وفى موضع كذا .

فقال الموصلى :

– نفى إبرهيم من أبيه إن كان أمير المؤمنين أخطأ حرفاً ، وقد علمت أنى أخطأت فى هذين الموضعين .

فلما انفض المجلس ، ومضى القوم ، وخرج إبرهيم وابن جامع يتحدثان حديث ذلك المجلس ، كان مما قاله إبرهيم :

– والله ما أعلم أن أحداً بقى فى الأرض يعرف هذا الغناء معرفة أمير المؤمنين .

فيجيبه ابن جامع قائلا :

ـ حق والله ، لهو إنسان يسمع الغناء منذ عشرين سنة ، مع هذا الذكاء الذي فيه .

فهكذا كانت حاسة الرشيد الفنية ، كما تصوره لنا هذه القصة ، وجدير بها أن تكون صحيحة .

وهذا الذكاء مع الإقبال على سماع الغناء ، كما يقول ابن جامع ، هو ما نسميه بالحس المرهف المترف ، وقد جعله ذلك كما نرى نقادة ينفذ فى الصور الفنية ، لا يكتفى بظاهرها ، كمن يلتمس اللهو الرخيص : يثير غرائزه ، ويحقق القريب من لذائذه ، فإنما كان هنالك — إلى جانب إقباله على المتع ونهمه إلى اللذائذ — ذوقه الفنى الرفيع الدقيق المهذب ، لا يحس نبوة إلا نفر منها وتأذى بها .

ومن ذلك ما يحكيه أبو العتاهية عنه أنه كان مما يعجبه غناء الملاحين فى الزلالات إذا ركبها ، فقد كانت ألحانهم تقع من نفسه موقع الرضى والإعجاب ، ولكن ذلك لم يكن يتم له ، إذ كان يكدره عليه فساد كلامهم ولحنهم وعاميتهم فى هذه الأغانى . فهو إذا رضى ذوقه الفنى عن طريقة غنائهم ، أنكر كلامهم وأسلوب أدائهم ، فكان يتأذى بذلك ، ويحس لهذه المفارقة شيئاً فى نفسه . ومن ذلك أنه طلب إلى أبى العتاهية ،

لقدرته على بساطة التعبير وسهولة الأسلوب ، أن يصنع لهؤلاء الملاحين شعراً يصنعون فيه غناءهم ، حتى يستطيعوا بذلك أن يحققوا الجمال الفنى فى الصورة والمادة جميعاً .

* * *

وبعد فحسبنا هذا فى التعرف إلى شخصية الرشيد ، ولعلنا استطعنا فى هذه السطور أن نتبين خطوطها الأولى وقسماتها البارزة ، بالقدر الذى نستطيع أن نتبين به ما كان لها من أثر كبير – ولا ريب – إلى جانب العوامل الأخرى التى عرضنا طائفة منها – فى هذه الصور الرائعة التى ظهر قصر الرشيد بها ، وهذه المنزلة العالية التى سجلها التاريخ واستطار القصاصون بها .

٣

ولسنا نعنى بقصر الرشيد قصراً بعينه كان يطلق عليه هذا الاسم ، فى هذه الجهة أو تلك من بغداد ، فلم يكن هنالك قصر يحمل ذلك الاسم ، كما أن الرشيد لم يجعل إقامته فى مكان واحد التزمه طول مدة خلافته . فنحن إنما نقصد إلى تصوير وجوه الحياة المختلفة فى القصر الذى كان يقيم فيه ذلك الخليفة ، فى العراق أم فى الجزيرة ، وعلى دجلة أم على الفرات . وقد انقسمت حياة الرشيد مدة خلافته بين هذين الإقليمين ، وأقام فيهما على كلا النهرين ، وقد قضى فى العراق الشطر الأول من خلافته ، ثم مضى إلى الجزيرة ، وقضى فيها معظم الشطر الثانى منها .

فأما قصره بالعراق فكان « قصر الخلد »، وإن كان له فيها قصر آخر يطلق عليه « قصر أبى الجند »، بناه على نهر القاطول بعد أن تم له حفره . ولكن القصر الذى عرف به واشتهر بأيامه فيه هو قصر الخلد هذا .

وهذا القصر بناه جده المنصور ، بعد أن ضاق بمقامه فى قصر باب الذهب الذى اختطه مع بغداد ، وبناه فى وسطها ،

وبنى تجاهه الدواوين المختلفة . ولكنه كان ما يزال شديد الحذر أن ينتقض ملكه ، أو تقع الفتنة بين جنده ، فلم يكد يفرغ من مدينته ، ويستقر فى قصر باب الذهب ، حتى اتجه تدبيره إلى أن يتخذ له فى الجانب الشرقى من دجلة مكاناً يقيم فيه طائفة من جيشه ، فاختط من أجل ذلك « الرصافة » ، ثم بنى فيها قصراً باسم ابنه المهدى ، ثم كان من تمام تدبيره أن بنى بإزائها على الشاطئ الغربى ، فيما بين الشاطئ وسور المدينة ، قصراً آخر هو « قصر الخلد » هذا .

وكان المكان الذى بنى فيه « الخلد » يصلح لذلك الغرض الأول الذى رمى إليه المنصور أحسن صلاحية . فهو واقع عند منحنى نهر دجلة بإزاء باب خراسان الذى ينفتح بينه وبين « قصر باب الذهب » ، كما يقع بإزائه على النهر جسر مؤلف من سفن شد بعضها إلى بعض ، يفضى إلى طريق خراسان ، ويصل الخلد بالرصافة التى تقع فى المنحنى الآخر المواجه لمنحنى قصر الخلد من نهر دجلة . فالطريق — كما ترى — متصلة قريبة بين هذه القصور الثلاثة التى يقع أولها داخل المدينة ، ويقع ثانيها خارجها على الشاطئ الغربى ، ويقع الثالث على الشاطئ الشرقى ، وعلى الطريق الواصلة إلى خراسان .

وليس يعنينا ذلك الآن قدر ما يعنينا أن نتعرف إلى قصر

الخلد نفسه ، والبقعة التى أقيم فيها .

فأما هذه البقعة فكانت من أحسن البقاع الواقعة على النهر طيب هواء وحسن مناخ ، وكانت لارتفاعها مبرأة من البعوض الذى كان ينتشر فى كثير من تلك الجهات الواقعة على النهر ، بسبب المستنقعات التى كانت تتكون هنالك بكثرة ، حين يفيض النهر عليها ثم ينحسر عنها . أما هى فقد كانت بعيدة عن طغيان النهر ، سليمة من أذى البعوض . ومن ذلك قالوا إن أبا جعفر المنصور حين بنى قصر الخلد فيها إنما اختارها فراراً من ذلك البعوض ، وتسلماً من أذاه .

وكان النهر كما قلنا يحتضن هذه الربوة التى بنى القصر عليها ، فهى مشرفة عليه من جهاته الثلاثة . وإلى جنوب هذه الربوة تتصل دجلة بنهر الصراة الذى يساير سور المدينة إلى ضاحية المحوّل .

وهكذا نرى أن المنصور كان موفقاً أحسن توفيق فى اختيار ذلك المكان ، فقد كان — إلى جانب ما يحققه له باعتباره ملكاً يبنى ملكاً جديداً ويحوط دولة ناشئة — مكاناً ممتازاً فى موقعه ، يستطيع أن يستروح فيه ويستمتع به ، ويجد فيه ألواناً من مثل هذا الترف الطبيعى الذى يستشعر مثله من الملوك الحاجة إليه . وقد قالوا إنه إنما سمى بالخلد « تشبيهاً له بجنة

الخلد . وما يحويه من كل منظر رائق ، ومطلب فائق ، وغرض غريب ، ومراد عجيب » .

فلم يكد الرشيد يلي الملك حتى اتخذ من هذا القصر مقامه ، وكان قد استقر فيه فى أيام خلافة أخيه موسى الهادى . وأصبح الخلد جديراً بذلك الاسم ، إذ يثير فى أذهان الناس ومخيلاتهم هذه الصور الرائعة المفتنة التى عرضت أمامهم عن جنة الخلد التى وعد المتقون . فها هى ذى الجنان الملتفة ، والحدائق المنسقة ، والأزهار المونقة ، من ورد وبهار ، وياسمين وجلنار ، وسوسن وأقحوان ، إلى غير ذلك مما اختلفت ألوانه وصوره ، وعبق أريجه ، وتضوع الجو بطيبه ، وفى خلال ذلك القنوات والغدران والجداول ، فيتألف من ذلك مناظر تأخذ بالألباب ، وتثير الصبوة . ومن دونها دجلة تزهو بفلكها وزوارقها التى تأنق فيها أصحابها ، وافتنوا فى أشكالها وألوانها وأثاثها .

لقد كانت طبيعة المكان واختيار الخليفة له وإقامته فيه مما أسبغ عليه تلك الألوان المعجبة المطربة ، وقد أقبل عليه الأمراء والسراة يشيدون فيه قصورهم ، ويفتنون فى هذه القصور ما مكنتهم وسائلهم الكثيرة ، وأموالهم الموفورة ، وأخيلتهم الخصبة ، وروح الترف التى كانت تسيطر عليهم . فها هوذا بإزاء قصر الخلد ، وعلى الضفة المقابلة فى ذلك المنحنى . قصر أبى أيوب

سليمان بن أبى جعفر المنصور ، الشاعر الأنيق الرقيق ، عم الرشيد وأبى إحدى زوجاته بعدُ . وها هوذا إلى جنوبى الخلد قصر أم جعفر زوج الرشيد الأولى ، ثم ها هى ذى قصور البرامكة : يحيى وابنيه جعفر والفضل فى رحبة الخلد ، تجاه باب خراسان ، إلى غير ذلك من القصور التى جمعت من الزينة ومظاهر الترف ما جعل من تلك الضاحية جنة الأرض ، فيما يقول الشعراء الذين كانوا يجدون فيها ، وفى مجالس اللهو والغناء والموسيقى التى تضاعف فتنتها ، متاعاً أى متاع .

وكان يناوح هذه الضاحية القائمة على الشاطئ الغربى للنهر ضاحية الرصافة وضاحية الشماسية . وكلتاهما من أحياء السراة والمترفين . وفى الشماسية كانت إقطاعات البرامكة ، وفيها بنوا طائفة من القصور الرفيعة . وكان الخلد يشرف على هذه الأحياء الأنيقة القائمة فى الشاطئ الشرقى ، فكان ذلك مما يزيده جمال منظر وروعة وفتنة . وكان يتألف من الضفتين فى هذا الموضع مجموعة مونقة من القصور والجنان ، يتوسطها النهر ، فجمعت بذلك بين الجمال المطبوع والجمال المصنوع ، وتمثلت فيها على أحسن وجه مظاهر هذه الحضارة التى اكتملت للعراق فى هذه الفترة .

وبعد فهذه صورة سريعة دقيقة — قدر الطاقة — للمكان الذى كان يقوم فيه قصر الخلد ، الذى أمضى فيه الرشيد

الشطر الأول من عهده ، من سنة ١٧٠ إلى سنة ١٨٠ ، فيما عدا فترات قصيرة كان يمضيها خارج بغداد ، فى مثل قصر عون العبادى بالحيرة ، وغيره .

أمضى الرشيد إذن فى الخلد عشر سنوات متصلة تقريباً ، تعتبر أنضر أيام حياته . وبهذه السنوات العشر اكتسب قصر الخلد ما اكتسب فى أذهان الناس وأخيلة الجماهير ، واتخذت منه أقاصيص الشعب مادة خصبة ما تزال تمتح منها ، وتقدمها إلى المتطلعين ، ريًّا لأخيلتهم المنهومة ، ونوازعهم المرهفة المحرومة . وفى هذه السنوات العشر أحيط قصر الرشيد بهذه الهالة الرائعة التى تتموج بخيالات الناس وأوهامهم وتهاويلهم . إنه ملك شاب أريحى النفس ، ذكى القلب ، متوقد الخيال ، مشبوب العاطفة ، متدفق الحيوية ، أتيح له ذلك الملك الواسع والثراء العريض واليد المبسوطة ، وقد ورثت دولته الحضارات المختلفة ولاءمت بينها ونقحت منها وزادت عليها ، وهو إلى ذلك لا يحس أعباء الملك ، فقد ذهبت وتلاشت فى غمرة شبابه وفتوته وحيويته ، وقد حملها دونه هؤلاء الذين آزروه ونصروه : يحيى وبنوه ، ولا عليه فى هذا ! وفرغ هو للقصر الذى انبعثت منه وحدة أطياف مجده ، تخلده فى أروع الآثار الإنسانية وأبقاها على الزمن .

ولكن الشباب يتقلص عن الرشيد يوماً بعد يوم ، وإذا بحقائق الأمور تستعلن له ، إذ يتكشف ذلك الجو الساحر عنه ، وإذا تبعات الملك تهيب به ، فيدوى صوتها فى أذنيه ويصل إلى شغاف قلبه . فهاهم أولاء الخوارج قد جمعوا جموعهم ، ونظموا صفوفهم ، وما يزالون يثيرون الفتن فى الجزيرة ، ويستولون على بعض بلادها ، ويسممون آراء العامة عن الدولة القائمة . ولئن ظلت الأمور كذلك ليوشكن فى يوم قريب أن ينقضوا على العراق ثم على بغداد ، فلا تكاد تعتصم منهم .

ثم هاهم أولاء أهل الشام ما تزال الفتن متقدة بينهم ، وما يزالون يثيرون الثائرات على الدولة ، وقد جعلوا ينتقضون هم والخوارج أطراف الجزيرة . وما تزال دعوة العصبية لبنى أمية تحرك أشجانهم ، وتوقظ آمالهم ، وتثير فيهم البغضاء لبنى العباس ، وتدفعهم إلى الانتقاض عليهم ، ومحاولة الظفر بذلك الحلم الذى ما يزال يداعب أجفانهم ، وهو الثأر لأنفسهم من العراق ومن تلك الدولة الأعجمية الخراسانية .

ويرى الرشيد كل ذلك فيحسن بالخطر مقبلا يدمدم ويجلجل ويرمى بالشرر . لقد بعث فى سنة ١٧٦ بموسى بن يحيى بن خالد البرمكى ليطفىء هذه الفتنة الناشبة بالشام قبل أن يندلع شرارها ويتسع مداها ، فاستطاع أن يضع حدا لها . ولكنها



« بلغ ما أداه ملك الروم من الجزية والفداء ذات مرة خمسين ألف دينار »

(انظر صفحة ١٥)

ماتكاد تخمد حتى تشتعل من جديد . حتى إذا كانت سنة ١٨٠ تفاقم أمرها ، وبلغ غاية لا بد من اصطناع الحزم فيها ، فعقد لجعفر بن يحيى على الشام ، وقال له وهو مستشعر خطورة الأمر : إما أن تخرج أنت أو أخرج أنا . ومضى جعفر إلى الشام ، وقد استطاع أن يقر فيها الأمن ، ويقمع مثيرى الفتنة والنافخين فيها والمستغلين لها .

ولكن الرشيد بقى مع ذلك قلق الخاطر مهموم النفس ، فقد كانت مادة الفتنة ما تزال موجودة فى الشام . وإذا كان جعفر فتك باللصوص والزواقيل ، وجرد القبائل — ما استطاع — من خيلهم ورماحهم ، فساد الهدوء واستقرت الأمور لذلك ، فإنما ذلك لأجل ، لا تلبث بعده الأحقاد والبغضاء أن تبرز من مكامنها ، وتلتمس عدتها ، وتثيرها على الدولة حرباً شعواء ، فما بقاؤه فى بغداد ؟

وهكذا قرّ رأى الرشيد على أن يترك العراق إلى الجزيرة ، ويدع بغداد إلى الرقة ، ليكون من هذه القلاقل على كثب . وقد انتهت بذلك هذه الفترة الأولى ، وتقلص المجد الذى كان لقصر الخلد ، وتلاشت تلك الهالة التى ظلت تحيط به هذه الأعوام العشرة ، وإن بقيت فى ذكريات الناس . وقد كان الرشيد يزور بغداد بين الحين والحين ، فينزل قصر الخلد .

ولكنه لم يعد ذاك ، وكانت هذه الزيارات لفترات قصيرة ، إذا استطالت لا تتجاوز الأشهر ، كالذى حدث بين سنتى ١٨٤ ، ١٨٥ .

كان الرشيد فى نحو الرابعة والثلاثين من عمره حين ترك بغداد . ولا ريب أنه كان يحس لذعة الفراق حين فصل عنها ، ولكنه لم يعد ذلك الشاب المفتون عن حقائق الأمور بأوهام الشباب . إنما هى حقائق الملك وتبعات السلطان التى تشغله منذ اليوم وتصرف حياته . ولقد تحدث عن بغداد وهو يمر ذات مرة بظاهرها متخذاً طريقه إلى الرقة ، حديثاً يبين لنا مبلغ تقديره للبواعث التى كانت تبعثه على تركها ، إذ يقول :

« والله إنى لأطوى مدينة ما وضعت بشرق ولا غرب مدينة أيمن منها ، ولا أيسر منها ، وإنها لوطنى ووطن آبائى ، ودار مملكة بنى العباس ، ما بقوا وحافظوا عليها ، وما رأى أحد من آبائى سوءاً ولا نكبة منها ، ولا سىء بها أحد منهم قط . ولنعم الدار هى ! ولكنى أريد المناخ على ناحية أهل الشقاق والنفاق والبغض لأئمة الهدى ، والحب لشجرة اللعنة بنى أمية ، مع ما فيها من المارقة والمتلصصة ومخيفى السبيل ، ولولا ذلك ما فارقت بغداد ما حييت ، ولا خرجت عنها أبداً » .

والواقع أن انتقال الرشيد من العراق إلى الجزيرة يؤرخ

عهداً جديداً فى خلافته ، هو العهد الذى أخذ فيه يتحمل تبعات ملكه ، ويستأثر بالسلطة لنفسه ، ويجمع السلطان فى يده ؛ وهو العهد الذى حدثت فيه نكبة البرامكة . .

وهكذا صار قصر الرشيد منذ ذلك الوقت فى الجزيرة . وقد كانت الجزيرة مطمح نظر المنصور وموضع اهتمام ذلك الخليفة العبقرى ، وكان لها عنده — فى حياطة الملك وتوطيد دعائمه — منزلة ظاهرة واعتبار قوى ، إذ كان يرى أنها الثغرة التى يمكن أن ينفذ منها خصوم الدولة . ولذلك لم يكد يفرغ من بناء بغداد ، ثم من بناء الرصافة ، خط الدفاع الشرقى ، على الشاطئ الشرقى من دجلة ، حتى اتجه إليها لتحصين حدوده فيها ، فبنى إلى جانب مدينة « الرقة » على شاطئ الفرات ، مدينة « الرافقة » وجعلها فى تخطيطها على مثال بغداد .

وهنالك نزل الرشيد ، وشيد القصور ، كقصر السلام والقصر الأبيض ، بعد أن اعتزم اتخاذ الرقة وطناً له ، يشرف منه على شؤون الدولة ، ونزلت معه حاشيته وجواريه ، واستحدثت بذلك الرقة عهداً من النشاط الأدبى والفنى لا عهد لها من قبل به ، لولا ما كان يشغل الرشيد فى ذلك العهد من تبعات الملك التى أخذ نفسه بتحملها ، من مقاومة الفتن التى تنبعث عليه من بعض الثائرين فى المشرق ، ومن الخوارج فى الجزيرة ، ومن

الأمويين فى الشام ، ثم من هذه الطوائف التى نظمها وجعل يشرف عليها ويقودها فى بعض الأحيان . وأخيراً من ذلك « الحج » الذى أخذ نفسه به عاماً بعد عام ، وفى طريقه إلى الحج فى الفرات إلى الأنبار ، ثم من الأنبار إلى المدينة ومكة ، يستطيع أن يتفقد أحوال الرعية ، ويتعرف عن كثب كيف تسير الأمور فى العراق وفى بغداد خاصة .

وهكذا كانت شواغل الملك تملك على الرشيد نفسه ، منذ خرج من بغداد ، واعتزم أن يقبض بيده على أزمة الأمور ، وأن يتولى بنفسه مقاليد التدبير .

ولكن مهما يكن من أمر تلك الشواغل ، فقد كان قصر الرشيد بالرقة — كما كان قصره فى بغداد — يزخر بألوان المتع وصنوف الترف وفنون اللهو . وكان معه هنالك الموصلى ويحيي المكى ومن إليهما من المغنين والضاربين والزامرين ، وكان معه أبو العتاهية والعباس بن الأحنف وربيعة الرقى من الشعراء ، كما كان معه الأصمعى ومن إليه من العلماء ، وكان مجلسه زاخراً بالندماء وأصحاب النادرة .

فإذا ضاق بالرقة خرج إلى الشام ، فنزل بمنبج عند عبد الملك بن صالح ، أو مضى شرقاً نحو دجلة ، فاتخذ هو وحاشيته مجلسهم فى حراقة ، أو نزل قصره الذى بناه هنالك ، قريباً من

جزيرة ابن عمر ، فى الموضع الذى يسمى « بقردى وبازبدى » .

ولكن الأمر على كل حال مختلف بين العهدين اختلافاً غير قليل فى طبيعته وفى بواعثه ، فقد كان اللهو فى هذا العهد نوعاً من الاستجمام يجىء فى المكان الثانى ، على العكس مما كان عليه فى عهده الأول .

* * *

وإذ فرغنا من تحرير القول فى مكان قصر الرشيد ، ومن صفة موقعه ، وبيان الملابسات التى لابسته ، فجدير بنا الآن أن ندع ظاهر القصر إلى داخله ، نجوس خلاله ، لنتعرف شيئاً من ألوان الحياة فيه ، ووجوه نشاطه المختلفة فى السياسة والإدارة ، والأدب والعلم ، والفن واللهو . ثم نتسلل من بعد ذلك إلى الحرم ، فربما أتيح لنا أن نظفر بشىء من صور الحياة هنالك .

٤

ما مبلغ نشاط قصر الرشيد فى سياسة الدولة وتوجيهها ، والمشاركة فى إدارتها ؟ وما هو الأسلوب الذى اصطنعه فى ذلك ؟ وما مدى النجاح الذى أصابه ؟

ليس لنا أن نطلق القول فى هذا أو نعمم الأحكام ، فللقصر فى ذلك تاريخ ينبغى أن نتتبعه لنصِل إلى كلمة فاصلة ، أو نعرض — على الأقل — صورة صحيحة . ونحن نعرف أن الخليفة كان أول أمره لا يكاد يعنى بشىء من إدارة الدولة أو توجيه سياستها أو معالجة مشكلاتها ، فإنما كان ذلك كله إلى يحيى بن خالد البرمكى ، وابنيه الفضل وجعفر ، ثم هؤلاء العمال وكتاب الدواوين الذين يتولون بمشورتهم ، ويرجعون إليهم ، ويصدرون عن رأيهم . فقد كان أمر الدولة جميعه إذن بين يحيى وابنيه ، لا يكادون يرجعون فى القصر إلى أحد ، إلا أن تكون الخيزران أم الرشيد ، فهى وحدها التى كانت تشير عليهم ، أو تعقب على رأيهم .

وكانت الخيزران تؤثر البرامكة وتسبغ عليهم رعايتها ، وترعى لهم نوعاً من الحرمة كان بينهم وبينها ، منذ كانت مع زوجها

المهدى — وهو لا يزال ولى عهد — بالرى ، ومعه يحيى بن خالد البرمكى يتولى أموره فيها ، ثم زوجة يحيى : زبيدة بنت منير ، وطفلهما الرضيع : الفضل . وفى ذلك الوقت ، حول سنة ١٥٠ ، ولدت الخيزران ابنها هارون ، فأرضعته زبيدة أم الفضل ، كما أرضعت الخيزران الفضل بن يحيى ، ونشأت بذلك بينها وبين هؤلاء البرامكة حرمة الرضاع ، وكانت لهذه الحرمة مكانة كبيرة فى نفسها ، فكانت ما تزال تحفظها وترعاها فى كل مناسبة تعرض ، حتى لقد وجهت إلى خالد البرمكى بجوهر قيمته ألف ألف درهم ومائتا ألف درهم — حين نكبه أبو جعفر ، وألزمه أن يؤدى إليه ثلاثة آلاف درهم — ليستعين بها فى الخلاص من هذا المأزق الموبق .

وكانت الخيزران امرأة قوية الشخصية ، نافذة البصيرة ، سديدة الرأى . وكان البرامكة يجلونها ويقدرون رأيها ويحرصون على مرضاتها ، بقدر ما كانت هى تؤثرهم بعطفها ، وتحبوهم بتشجيعها . وبذلك نستطيع القول بأنها هى التى كانت تمثل القصر فى سياسة الدولة وإدارة شؤونها ومعالجة مشكلاتها ، مدى السنوات الثلاث الأولى من خلافة الرشيد ، إلى أن ماتت سنة ١٧٣ .

وكان الخليفة الشاب مطمئنا بذلك راضيا به ، فقد كان

يجل أمه كل الإجلال ، ويكبرها غاية الإكبار ، ويركن إليها ، وينتهى إلى رأيها ، ولا يخالف أدنى مخالفة عن أمرها ، على العكس من مسلك أخيه موسى الهادى معها ، فى خلافته القصيرة المقتضبة ، وكانت هى تغمره بعطفها ، وتؤثره بحنانها وحبها ، فإذا هو مستغرق فى هذه الغمرة ، مستنيم إليها . وكذلك كان شأنه من يحيى بن خالد البرمكى قريباً من ذلك ، فقد نشأ على إكباره ، إذ كان أباه من الرضاع ، وحرمة الرضاع كحرمة النسب ، حتى قالوا إنه ما كان يدعوه إلا بيا أبت ، وإذ كان مربيه ومثقفه وراعيه ورائده منذ طفولته ، يتولى له جميع أموره ، ويحمل عنه جميع أعبائه .

ثم توثقت الصلة بينهما وبلغت مدى بعيداً ، فى أثناء المحنة التى تعرضا لها معاً فى أيام الهادى ، وتحمل يحيى معظم أمرها ، حين أراد الهادى أن يجعل ولاية العهد لابنه جعفر ، ويخلع أخاه هارون عنها . وقد جعل يسلك لذلك المسالك المختلفة ، ويصطنع له شتى الوسائل ، بين اللين والغلظة ، والإغراء والتهديد ، والملاطفة والتنكيل ، حتى لقد ألقى بيحيى فى السجن ، على اعتبار أنه هو الذى يحمل هارون على الإباء ، وأخذه بألوان من العذاب ، وسلط على هارون صنوفاً من الأرزاء ، حتى كاد أخيراً أن يذعن لإرادة أخيه ويسلم لأمره ،

لولا يحيى وأبناؤه ، حتى قضى الله قضاءه ، فمات الهادى ميتة تحوطها الريب ، وتثور حولها الشائعات ، وأفضت الخلافة إلى الرشيد وما يكاد يصدق .

وكان فى الرشيد ميل إلى إيثار الدعة ، والحياة الخافضة ، ورغبة فى الاستمتاع بالحياة بعيداً عما عسى أن ينغص عليه . حتى لقد طابت نفسه بأن يخلع ولاية العهد ، ولم يكن يرى فى ذلك غضاضة . وكان يقول ليحيى ، وهو ينكر عليه هذا الرضا بما يسومه أخوه : « أليس يترك لى الهنىء والمرىء ؟ فهما يسعاننى ، وأعيش مع ابنة عمى» ، وقد كان يحب ابنة عمه زبيدة ويجد بها وجداً شديداً . فقد كان مبلغ همه أن يستمتع بطيبات الحياة ، ممثلة فى الهنىء والمرىء ، وفى ابنة عمه ، فكذلك كان هذا الشاب ، وكذلك كانت نظرته إلى الخلافة ، فإذا خلصت إليه فقد طابت نفسه بأن يجد من يحمل عنه أعباءها ، ويعيش هو مستمتعاً بالهنىء والمرىء ، مع ابنة عمه وأشباه ابنة عمه ، فى خفض ودعة .

هكذا كانت حقائق الأمور حين ولى هارون الرشيد الخلافة فى تلك السن الغضة ، وقد سيقت إليه ولم يكن يحفل بها ، فلم يلبث أن قلد يحيى بن خالد الوزارة ، وقال له :

— « يا أبت ! قد قلدتك أمر الرعية ، وأخرجته من عنقى

إليك . فاحكم بما ترى ، واستعمل من شئت ، واعزل من رأيت ، وافرض لمن رأيت ، وأسقط من رأيت ، فإنى غير ناظر معك فى شىء » .

ثم دفع إليه خاتمه ، تماماً على هذا التفويض المطلق . وكذلك كان هذا التفويض هو عنوان هذه الفترة البغدادية من خلافة الرشيد . فيما يتصل بسياسة الدولة ورعاية الرعية وإدارة الحكم ، فذلك كله موكول إلى يحيى البرمكى وأبنائه وسائر أسرته وعماله ، وليس للقصر مشاركة فيه إلا للخيزران ، فى البقية الباقية من حياتها ، فإذا قضت نحبها فى سنة ١٧٣ فقد آل الأمر كله إلى البرامكة ، وزراء الدولة ، وصنائعهم .

ولعل الشىء الوحيد الذى أتاحه موت الخيزران للرشيد أن استطاع تولية الفضل بن الربيع على « نفقات العامة والخاصة وبادوريا والكوفة » . وكانت هذه رغبة للرشيد ، أن يؤدى إلى الفضل — وكان متصلا به منذ أيام أبيه المهدى — هذه التكرمة ، ولكن الخيزران كانت ما تزال تأبى أن يتولى أى عمل من أعمال الدولة . ولا ندرى ماذا كان رأى البرامكة فى هذه التولية ؟ أكبر الظن أنهم كانوا فى قرارة نفوسهم يرون فى الفضل رأى الخيزران ، ولكنهم لم يشاءوا أن يقفوا فى سبيل هذه الرغبة من الخليفة الشاب ، دون أن يعلموا ما تخبئه لهم الأقدار

على يد الفضل بن الربيع هذا .

والفضل بن الربيع قديم الصلة بدار الخلافة ، فقد كان أبوه الربيع بن يونس مولى أبى العباس السفاح ، وموضع تقديره ، فلما جاء المنصور كان من أخص بطانته . فولاه الوزارة بعد مقتل أبى أيوب المورياني ، كما ولى ابنه الفضل هذا حجابته ، واستطاع بلطف مداخله وحسن تأتيه أن يوثق بقصر الخليفة أسبابه ، فإذا كانت أيام الرشيد الأولى كان من بطانته ، ودخل فى عداد خاصته وندمائه ، وإن كانت الخيزران — كما رأينا — كارهة له . ولكنها لم تكن تملك أكثر من أن تحول بينه وبين الولاية . حتى إذا ماتت استطاع الرشيد أن يظفر له ببعض الولايات ، يأخذ رزقها ، ويستعين به على الاحتفاظ بمنزلته فى القصر .

ولكن موت الخيزران إذا كان أفسح للفضل بن الربيع سبيله ، فإنه فى الوقت نفسه أخلى القصر من شخصية قوية تسيطر عليه ، وتقبض على زمامه ، وتحكم الصلة بينه وبين سياسة الدولة ، فالخليفة شاب فارغ منصرف إلى لهوه ، مستسلم فى أمور الدولة وتدبير الموارد والمصارف إلى يحيى وآله ، وقد استأثر به جعفر بن يحيى أو كاد . فكان من طبيعة الأشياء أن تثير هذه الحال فى بيئة القصر — وهى بيئة مقصورة

فارغة — ألواناً من القيل والقال ، وتولد فى نفوس أهل القصر صنوفاً من الحسد والنفاسة والضغينة ، ما تلبث حتى تصبح دسائس ونمائم وسعايات ، تدب فى الخفاء . وتأخذ المسارب الملتوية ، وتنفث سمومها فى مخافتة ومواربة .

ومنذ ثبتت قدم الفضل بن الربيع فى القصر ، وجدت هذه الحالة فيه عنصراً قويا صالحاً يقويها وينميها ويسوسها ويسددها ، فقد كان بطبيعته وبتأثير نشأته خبيراً دقيق البصر بتدبير الدسائس ونصب الشراك واحتيال الحيل . وقد ورث عن أبيه — فيما يبدو — هذه الطبيعة ، وتأدب به فى ذلك . وإنه ليذكر كيف استطاع أبوه أن يوقع بأبى أيوب الموريانى وزير المنصور وأثيره ، بالرغم من المكانة الرفيعة التى كان يتمتع بها عنده ، ثم كيف استطاع بدقة مدخله ، وسعة حيلته ، ومعرفته بحقائق النفوس ومسارب الأهواء ، أن يفسد ما بين المهدى ووزيره ومربيه وآثر الناس عنده ، أبى عبيدالله معاوية ابن يسار ، وكيف تأتى لذلك ، حين سعى ما سعى حتى أوقع بابن الوزير تهمة الزندقة ، فعوقب عليها بالقتل ، ولكن ذلك لم يكن به ، قدر ما كان يبغى به ما وراءه ، فقد مضى بعد ذلك إلى بعض خدم المهدى ، وقال له : « إذا دخل أبو عبيدالله إلى المهدى ، فصار بحضرته ، قبضت على سيفه ،

ومشيت إلى جانبه ، فسينكر ذلك عليك أمير المؤمنين ، فتقول : يا أمير المؤمنين ، قتلت ابنه بالأمس ، فكيف آمنه عليك أن يخلو بك ومعه سيفه اليوم ؟ » ، ففعل الخادم ذلك ، وبلغ الربيع غايته بذلك الأسلوب ، فقد وقعت بذلك الوحشة فى قلب الخليفة ، وانصرف عنه ، حتى عزله .

ذلك هو الربيع ، وكذلك كان ابنه الفضل . والعصا — كما يقول العرب — من العصية ، ولا تلد الحية إلا حية .

وهكذا وجد أهل القصر المضطغنون على البرامكة فى الفضل ابن الربيع إماماً لهم ، يحسن الكيد ، ويجيد المكر ، ويعرف التأنى للأمور والنفاذ فيها . وهو لقربه من الخليفة وارتياح الخليفة إليه يستطيع أن يحكم ويسدد التدبير ، فهو يستطيع أن يوقظ فى الرشيد شهوة السلطان ، وجدير بها أن تستيقظ بعد هذه الإغفاءة الكافية ، فإذا هى صحت وتلمست مكانها فلا بد من حدوث الجفوة بينه وبين أصحاب السلطان الحقيقى ، بل هو يستطيع أن يأتيه من ناحية هذه النزعة القوية عنده إلى الاستمتاع بمتع الحياة ، فيستغل مسألة المال الذى يحقق هذه المتع ، ويصور البرامكة بأنهم يقبضون عنه من ذلك ما ينبغى أن يصير إليه ، وهو مستطيع فوق ذلك أن يأتيه من ناحية الملك ، ويستغل بعض الثورات ، كثورة يحيى بن عبدالله الطالبى ،

وطبيعة البرامكة فى معالجة مثل هذه الأمور بالرفق والأناة ، فيصورهم فى صورة المتآمرين عليه ، الراغبين فى صرف الخلافة إلى غيره .

وقد مشت هذه الدسائس فى القصر مشياً وئيداً ، ترفع رأسها ثم تختفى ، ولكنها ماضية على كل حال ، تغذيها أم جعفر زوج الرشيد ، وتحيك لها ما يدخل فى طاقتها . ثم استطاعت هذه الدسائس أن تدب خارج القصر ، وتلتمس الأعوان هنا وهنا ، فتجد فى مثل على بن عيسى بن ماهان نصيراً يشاركها ويبذل جهده لها . كما استطاعت أن تأخذ سبيلها إلى الدهماء ، فتأتيهم من بابتهم ، وتذيع فيما بينهم عن البرامكة أنهم زنادقة أو ملاحدة أو مجوس أو ما إلى ذلك . وما أسير هذه الأقوال وأبلغ أثرها فى العامة !

وهكذا استطاع هذا الأخطبوط أن يمد أطرافه هنا وهنا من حول البرامكة ، فى أناة وبطء ، ولكن فى اتئاد وثقة وثبات .

ولا ريب أن هذه الدسائس استطاعت أن تحيك فى صدر الرشيد شيئاً فشيئاً ، وإن كانت منزلة البرامكة منه منزلة وثيقة راسخة . وكانوا هم من ناحية أخرى واثقين بأنفسهم معتدين بمكانتهم ، ولعل هذه الثقة وذلك الاعتداد كانا مما أعان خصومهم عليهم ، ومكن لهم من مقاتلهم . ولكن القلق أخذ يداخلهم

أخيراً ، حين رأوا الرشيد يستعمل سلطانه فيما يتصل بحاجبه ، ووظيفة الحجابة من أخص الوظائف بالخليفة وأرفعها فى القصر ، وكان يليها أخو يحيى البرمكى ، محمد بن خالد ، فعزله عنها سنة ١٧٩ ، وولاها خصم البرامكة الفضل بن الربيع.

وهكذا قوى سلطان القصر أى قوة ، ولم يعد للبرامكة فيه أحد يستطيعون أن يطمئنوا إليه ؛ ويلتفتون فإذا الجو يضطرب من حولهم ، وإذا الوشايات والسعايات والدسائس تملك عليهم منافذهم .

ولعلنا نستطيع أن نتمثل شعورهم لقاء هذه الحالة وتقديرهم لها ، فى هذا البيت من الشعر الذى كان يتمثل به جعفر بن يحيى ، وهو خارج إلى الشام فى سنة ١٨٠ ، وقد اجتمع لتوديعه الرشيد والأمراء ، ووجوه الدولة . فلم يكن يشفق وهو ماض إلى الحرب إلا من هؤلاء الذين يدبون له الضراء فى القصر . فجعل يتمثل بقول الشاعر :

وكونى على الواشين لداء شغبة كما أنا للواشى ألد شغوب

كما نستطيع أن نتمثل هذا الشعور ، فى صورة أخرى ، فى ذلك الخطاب الذى ألقاه جعفر بين يدى الرشيد بعد عودته من حرب الثائرين فى الشام وإقرار الأمور فيها ، إذ نلمح وراء كلماته الرغبة الشديدة فى تملق سلطان الرشيد ، والإشفاق

الشديد من أن يظنه مهدراً لهذا السلطان أو منتقصاً منه ، إذ يقول فيما يقول :

« «وايم الله ، يا أمير المؤمنين ، لئن كنت قد شخصت عنهم ، وقد أخمد الله شرارهم وأطفأ نارهم . . . فما ذلك إلا ببركتك ويمنك وريحك ودوام دولتك السعيدة الميمونة الدائمة ، وتخوفهم منك ، ورجائهم لك . والله يا أمير المؤمنين ، ما تقدمت إليهم إلا بوصيتك ، وما عاملتهم إلا بأمرك ، ولا سرت فيهم إلا على حد ما مثلته لى ، ورسمته ، ووقفتنى عليه . والله ما انقادوا إلا لدعوتك ، وتوحد الله بالصنع لك ، وتخوفهم من سطوتك . » إلخ .

فإن فى هذا الإسراف الشديد فى إسناده قمع الثورة إلى الرشيد ، وتملق نزوعه إلى السلطان ومباشرته بنفسه ، ما يدل دلالة قوية على إحساسه بالوضع الذى صار إليه البرامكة منه ، وبأنه أخذ يتململ من ذلك الموقف السلبى الذى يقفه فى تصريف أمور الدولة .

والواقع أن الرغبة فى السلطان كانت قد استيقظت فى الرشيد قوية طامحة عنيفة ، ثم ما إن ترك بغداد ، وتخلص من ذلك الجو الذى قضى فيه ذلك العهد الطويل مستنيما للبرامكة ، حتى أصبح حاكماً مطلق اليد ، يباشر أمور الدولة

بنفسه ، يولى من يشاء ، ويعزل من يشاء ، ويتصرف كيف يشاء ، لا معقب عليه ولا رادّ لأمره . واتخذ القصر لوناً آخر مختلفاً عن ذلك اللون الأول ، يبدو فيه الجد والحزم والصرامة ، وكان ما يزال يستقبل فيه هذا أو ذاك من قواده وعماله المسؤولين أمامه ، كيزيد بن مزيد ، وخريمة بن خازم ، وهرثمة ابن أعين ، ونعيم بن حازم ، والسندى بن شاهك ، وعبدالله ابن مالك ، وحماد البربرى ، إلى كثير غيرهم ، يتدبر وإياهم أمور الخلافة ، ويتعرف معهم شؤون الدولة.

وكان للقصر أو للرشيد — تحقيقاً لذلك السلطان واستكمالا له — عيونه المبثوثة فى كل مكان ، تنظر له فى الخفيات وتؤدى إليه الأسرار ، سنة من سنن الملك الذى ورثه العباسيون عن الفرس ، وتلقوه بتقاليده و « آيينه » ، فها هو ذا أردشير بن بابك — فيما يتناقل الرواة فى ذلك العصر — « كان يصبح فيعلم كل شىء بات عليه من كان فى قصبة دار مملكته من خير أو شر ، ويمسى فيعلم كل شىء أصبحوا عليه ، فكان متى شاء قال لأرفعهم وأوضعهم : كان عندك فى هذه الليلة كيت وكيت ، ثم يحدثه بكل ما كان فيه إلى أن أصبح » . ثم ها هو ذا كسرى أنو شروان ، « كان أشد الناس تطلعاً فى خفايا الأمور ، وأعظم خلق الله تعالى فى زمانه تفحصاً وبحثاً

عن أسرار الصدور ، وكان يبث العيون على الرعايا ، والجواسيس فى البلاد ، ليقف على حقائق الأحوال ، ويطلع على غوامض القضايا ، فيعلم المفسد فيقابله بالتأديب ، والمصلح فيجازيه بالإحسان » . هكذا كان رواة الفرس يتحدثون عن هؤلاء الملوك ، ثم يذهب الناس يلتمسون أشباه هذه السنة عند ملوك العرب وأمرائهم ، كعمر ، ومعاوية ، وعبد الملك ، وزياد ، والحجاج .

وإذن فقد اصطنع الرشيد سنة الملك ، واتخذ القصر لون القصور المالكة ، بما جعل يبثه من عيون وأرصاد وجواسيس . وربما كان ذلك من بعض عمل ذلك العدد الضخم من الخدم الذى حشد به القصر ، كحسين الخادم ، وأبى عصمة حماد بن سالم ، وأحمد بن الجنيد الختلى ، وسلام الأبرش ، وحمويه ، ورشيد ، ومسرور ، وخاقان ، وإبرهيم بن حميد ، إلى كثير غيرهم .

ونلاحظ أن بعض هؤلاء الخدم كان يتولى للرشيد بعض الولايات المتصلة بالجاسوسية . فقد ولى مثلا حمويه الخادم بريد خراسان ، وكذلك كان مسرور الخادم يتقلد البريد والخرائط ، ويخلفه عليه ثابت الخادم . ونحن نعلم ما وظيفة صاحب البريد هذا . لقد كان من أول ما يناط به أنه موكل بالأخبار يتجسسها

ويتعرفها ويكتب إلى الخليفة بها ، ومن ذلك كان حرص الخلفاء على أن يتخيروا لهذا المنصب ، ويلتمسوا فى صاحبه صفات كثيرة مختلفة ليس من الميسور اجتماعها . وقد روى عن أبي جعفر المنصور أنه قال : « ما كان أحوجنى إلى أن يكون على بابى أربعة نفر لا يكون على بابى أعف منهم » ثم ذكر القاضى وصاحب الشرطة وصاحب الخراج . فلما كان على أن يذكر الرابع عض على إصبعه السبابة ثلاث مرات ، يقول فى كل مرة : آه . قيل : ومن هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : صاحب بريد يكتب بخبر هؤلاء على الصحة .

وإذن فقد كانت تولية الرشيد من ولى من خدمه على البريد كمسرور وحمويه ، إنما ذلك ليكونوا عيوناً له ، يؤدون إليه أخبار ولاته وعماله ومن إليهم من الوجوه ، وربما كان من هذا القبيل أيضاً ما يذكر عن مسرور الخادم أن الرشيد كان يبعثه فى الغزو أحياناً ، فلعل ذلك كان ملحوظاً فى مثل هذه البعثة . وما ذكرناه عن البريد يؤيد ما استظهرناه من أن التجسس كان من عمل ذلك العدد الضخم من خدم الرشيد فى القصر .

ومهما يكن من أمر فقد كان الرشيد حريصاً أشد الحرص على أن يعلم كل صغيرة وكبيرة ، منذ جمع إليه الأمر فى

يده . ويحكى صاحب الأغانى فى ترجمة بكر بن النطاح ، عن يزيد بن مزيد أحد قواد الرشيد ، أنه قال :

« وجه إلى الرشيد فى وقت يرتاب فيه البرئ . فلما مثلت بين يديه قال :

— يا يزيد من الذى يقول :

ومن يفتقر منا يعش بحسامه ومن يفتقر من سائر الناس يسأل

فقلت له :

— والذى شرفك وأكرمك بالخلافة ما أعرفه .

قال :

— فمن الذى يقول :

وإن يك جد القوم فهر بن مالك
فجدى لجيم قرم بكر بن وائل

قلت :

— لا والذى أكرمك وشرفك يا أمير المؤمنين ما أعرفه .

قال :

— والذى أكرمنى وشرفنى إنك لتعرفه ، أتظن يا يزيد ، إذ أوطأتك بساطى وشرفتك بصنيعتى ، أنى أحتملك على هذا ؟ أو تظن أنى لا أراعى أمورك وأتقصاها ؟ أو تحسب أنه يخفى على شىء منها ؟ والله إن عيونى لعليك فى خلواتك ومشاهدك !

هذا جلف من أجلاف ربيعة عدا طوره وألحق قريشاً بربيعة . فأتنى به .

فانصرفت أسأل عن قائل الشعر ، فقيل لى : هو بكر بن النطاح ، وكان أحد أصحابى ، فدعوته ، وأعلمته ما كان من الرشيد . . . » إلخ .

فهذا الخبر يدلنا على مبلغ حرص الرشيد على معرفة أحوال المتصلين به أو العاملين له وأخبارهم .

ولكن هذا الحرص الذى كان مظهراً من مظاهر الحرص على السلطان جعل أذنه هدفاً قريباً للأخبار المختلفة ، ما صح منها وما كذب ، وأتاح بذلك لحملة الوشايات والسعايات والدسائس ، التى يقودها الفضل بن الربيع ، أن تبلغ غايتها ، وظل قصر الرشيد فى الرقة بيئة خصبة ملائمة لذلك كله ، فوق ما كان عليه الأمر فى العهد البغدادى ، وأصبحت هذه الحملة سلطة مخوفة مرهوبة ، وسيفاً معلقاً على الأعناق .

ونحن نعرف بعد كيف انتهت مأساة البرامكة . ولكن الأمر لم يقف عند هذا الحد ، فقد كاد ذلك الجو الذى يعج به قصر الرشيد يطوح بأمير من أمراء الهاشميين ومن أكابرهم ، إلى حيث طوح بالبرامكة ، ولا ذنب له إلا أنه كان حسن الصلة بهم ، فلم يسر فى ركاب القصر ، ذلك هو عبد الملك

ابن صالح بن على .

وقد دبرت المؤامرة ضده وأحكمت حلقاتها ، حين استطاع جو الدسائس والتآمر فى القصر أن يفتن كاتبه « قمامة » وابنه « عبد الرحمن » ، فإذا بهما يسعيان به عند الرشيد : أنه يطلب الخلافة ويطمح فيها ويسعى إليها ، ويعمل على نقض عرش الرشيد واقتلاعه . ولعل ذلك يصور لنا إلى أى حد بلغ الفساد .

ويشهد القصر ذات يوم ذلك الأمير الوقور ، فى مجلس الرشيد ، وقد أزعج بالحضور إليه ، والرشيد مغضب أشد الغضب ، قد ملأت سورة الغيظ أوداجه ، فيدور بينهما هذا الحوار ، إذ يبتدره الرشيد بقوله :

— أكفراً بالنعمة ، وجحوداً لجليل المنة والتكرمة ؟

فيقول عبد الملك :

— يا أمير المؤمنين ! لقد بؤت إذن بالندم ، وتعرضت لاستحلال النقم ، وما ذاك إلا بغى حاسد نافسنى فيك مودة القرابة ، وتقديم الولاية . إنك يا أمير المؤمنين خليفة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى أمته ، وأمينه على عترته . لك عليها فرض طاعته وأداء النصيحة ، ولها عليك العدل فى فى حكمها ، والتثبت فى حادثها ، والغفران لذنوبها .

فيقول الرشيد ، وقد كاد صدره يضيق بكلام عبد الملك :

– أتضع لى من لسانك ، وترفع لى من جنانك ؟ هذا كاتبك قمامة يخبر بغلك وفساد نيتك ، فاسمع كلامه .

ولكن عبد الملك لا يلبث فإذا المؤامرة ماثلة بين عينيه، فيقول :

– أعطاك ما ليس فى عقده ، ولعله لا يقدر أن يعضهنى ولا يبهتنى بما لم يعرفه منى .

وأحضر قمامة ، وكأنما كان معدا ، فيقول له الرشيد :

– تكلم ! غير هائب ولا خائف .

فيقول :

– أقول : إنه عازم على الغدر بك ، والخلاف عليك .

فيراجعه عبد الملك ، ويقول له :

– أهو كذلك يا قمامة ؟

ولكن ما جدوى هذه المراجعة ؟ إنه أمر بيت بليل ، فيقول قمامة :

– نعم ! لقد أردت ختل أمير المؤمنين .

فيقول عبد الملك ، وكأنما يخاطب نفسه ، وقد عجب من جرأة كاتبه :

– كيف لا يكذب على من خلفى ، وهو يبهتنى فى وجهى ؟

ولكنه ليس كاتبه فحسب ، فهنالك ابنه أيضاً ، فيقول له الرشيد :

ــ وهذا ابنك عبد الرحمن يخبرنى بعتوك وفساد نيتك . ولو أردت أن أحتج عليك بحجة ، لم أجد أعدل من هذين لك ، فبم تدفعهما عنك ؟

فيقول عبد الملك :

ــ هو مأمور ، أو عاق مجبور ، فإن كان مأموراً فمعذور ، وإن كان عاقا ففاجر كفور ، أخبر الله عز وجل بعداوته ، وحذر منه بقوله : « إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم » .

فينهض الرشيد من مجلسه ، وهو يقول :

ــ أما أمرك فقد وضح . ولكنى لا أعجل حتى أعلم الذى يرضى الله فيك ، فإنه الحكم بينى وبينك .

فيقول عبد الملك :

ــ رضيت بالله حكماً ، وبأمير المؤمنين حاكماً . فإنى أعلم أنه يؤثر كتاب الله على هواه ، وأمر الله على رضاه .

وينتهى ذلك المجلس إذ يساق عبد الملك إلى السجن ، وقد اغتبط شيطان الدسيسة بذلك الظفر ، وضحك فى جيبه ، وجعل يتوثب لما وراء السجن . ولكن حرمة الرحم كانت ماثلة

بين الرشيد وعبد الملك ، تصد عنه ، وتحوطه ، وتكبت شيطان الدسيسة وتقمعه ، فوقف الأمر عند ذلك الحد ، ولم يزل عبد الملك فى محبسه حتى مات الرشيد .

وكأنما انتهى بذلك نشاط القصر السياسى ، حين انتهت هذه المكايد إلى غايتها .

والواقع أن الرشيد لم يكد يستقر فى قصره بعد ذلك إلا ريثما يتأهب لرحلة يرحلها ، لحج أو غزو أو إطفاء ثائرة . فلم يكد يفرغ من أمر البرامكة ثم من أمر عمه عبد الملك بن صالح ، حتى مضى يحج بالناس ، ثم لم يكد يعود من الحجاز ، حتى أخذ سبيله إلى الرى ، فقد كان القلق ما يزال يفسد عليه حياته من ناحية على بن عيسى بن ماهان . ولكنه لا يصنع فى رحلته هذه شيئاً ، فقد كان الأمر أهون من أن يتكلف له رحلة ويأخذ له عدة ، فيعود راجعاً إلى الرقة .

بيد أنه لا يستطيع أن يهدأ أو يستطعم القرار فى القصر . إن فى نفسه شيئاً يؤزه دائماً ، وإذن فليكن أمير الصائفة هذا العام ، وليمض فى هذه الغزوة إلى أقصى مداها ، وليبذل فيها ما يملك من حماسة وحمية . فإذا عاد منها فإنه لا يلبث إلا قليلا وإذا بالخبر يجىء ، من خراسان أن « رافع بن الليث » شق عصا الطاعة ، ورفع علم الثورة . فها هى ذى إذن رحلة جديدة يمضى

فيها نحو خراسان ، ليطفئ هذه الثائرة ، ويقتل ذلك الطاغية ، ويقضى تلك الحاجة الخفية فى نفسه .

وكذلك يأخذ سبيله من الرقة إلى بغداد ، يبقى فيها ثلاثة أشهر ، ثم يتجه إلى خراسان ، فإذا بلغ طوس فقد بلغ الكتاب أجله ، وانطفأت الشعلة ، وثوى هنا لك إلى الأبد . . . .

لقد كانت هذه السنوات الأخيرة سلسلة متصلة من النشاط المحتدم ، ولكنه نشاط الرشيد بعيداً عن قصره . أما قصر الرشيد نفسه ، فقد انتهى نشاطه السياسى ، منذ لم يعد للدسائس السياسية أهداف تتجه إليها وتعمل لها .

٥

إذا كانت العوامل التى أشرنا فى عرض الكلام إلى طائفة منها جعلت قصر الرشيد سيء الأثر فى السياسة ، إذ وجهت نشاطه السياسى تلك الوجهة ، وطبعته بذلك الطابع الذى يصدر عن الأهواء والأحقاد ، فقد كان الأمر مختلفاً اختلافاً كبيراً عن هذا فيما يتصل بأوجه النشاط الأخرى ، وسنرى فى هذا الفصل أن النشاط العلمى والأدبى فى قصر الرشيد لم يكن صورة من هذا النشاط فى بغداد فحسب . بل كان إلى جانب هذا موجهاً له توجيهاً طيباً فى جملة القول ، على النحو الذى نرجو أن يتضح فيما يلى .

ولقد نشأ الرشيد فى قصر أبيه المهدى ، كما ينشأ الأمراء والمترفون ، يلتمس لهم المؤدبون فى صنوف العلم والأدب . ولكن قصر المهدى كان فوق هذا بيئة علمية وأدبية جديرة بأن يكون لها أثرها البليغ فى تنشئة عقل الرشيد ، وتكوين ثقافته وذوقه الأدبى ، فتجعل منه أميراً ممتازاً بسعة المعرفة ، وكثرة الرواية ، والبصر بصور الجمال الفنى ، وتثير فيه روح النهم لكل ما يغذى هذه النواحى فيه ، وتعظم فى نفسه قدرها .

وقد كان الناس في أيام المهدى قد أخذوا يتنفسون شيئاً ، ويستروحون من الضيق الذى أطبق عليهم أعواماً ، حين رأوا ذلك الخليفة الجديد يريد أن يبدأ عهداً جديداً ، يغضى فيه عيناً عن المآخذ القديمة ، ويسدل فيه — بعض الشيء — ستاراً على ما كان من العلويين في أيام المنصور . وبذلك شجع كثيراً من الشعراء وأهل الأدب على أن يقصدوه من هنا وهنا ، فأصبح فناء قصره ملتقى للشعراء الوافدين من الحجاز كابن المولى الشاعر العلوى ، ومن البصرة كبشار ، وشأنه في مهاجمة المنصور وهجائه معروف . وعكاشة بن عبد الصمد العمى ، ومن الشام كآدم بن عبد العزيز المروانى ، ومن البادية كإبرهيم بن هرمة ، والحسين بن مطير الأسدى ، إلى غير هؤلاء وأولئك من شعراء القصر الكوفيين ومن إليهم ، كأبى العتاهية ، وأبى دلامة ، ومروان بن أبى حفصة ، وسلم الخاسر. كما كان إلى جانب ذلك لعلماء العربية مكان ملحوظ في قصر المهدى ، سواء كانوا من أهل الكوفة كالمفضل الضبى ، أم من أهل البصرة كأبى محمد اليزيدى ، أم من أهل الحجاز كعيسى بن يزيد بن دأب الليثى ، وعبدالله بن مصعب الزبيرى .

وليس بنا أن نتحدث عن قصر المهدى ، وإنما نريد أن ننبه هنا

تنبيهاً خفيفاً عاجلا إلى البيئة الأدبية التى نشأ فيها الرشيد ، وتكونت له فيها تلك الروح الأدبية الرفيعة التى جعلت قصره أول الأندية الأدبية فى عصره وأحفلها وأعظمها بثاً لروح النشاط الأدبى فى البيئات الأدبية المختلفة ، إلى جانب ما عرضنا من قبل له من القول فى شخصيته وصفاتها العامة ، كرهافة شعوره وعظم حيويته وما إلى ذلك مما هو فى حقيقة الأمر من أول الأسباب فى تكوين الشخصية الأدبية وتوجيهها .

ولا ريب أن فى نشأة الرشيد وأمثاله من هذه الطبقة المترفة ، وأهل تلك البيئة المقصورة المحدودة ، كثيراً من العوامل التى تقف بهم دون أن يبلغوا المدى الأدبى الذى يستطيع أن يبلغه من عداهم من الشعراء والأدباء ، ولكن الرشيد أتيح له هذا الحظ من الاستعداد الطبيعى ، وتلك البيئة التى استطاعت أن تحفز مواهبه . وبذلك استطاع إلى جانب ما له من ثقافة أدبية موفورة ، أن يأخذ أحياناً فى سبيل الشعراء فيقول الشعر . وقد بقيت لنا من ذلك بقايا منثورة فى المصادر المختلفة ، كقوله بعد نكبة البرامكة ، وقتله جعفر بن يحيى . وقد أنشدها الأصمعى ليحكيها عنه :

لو أن جعفر خاف أسباب الردى

لنجا بمهجته طمرٌّ ملجم

ولكان من حذر المنون بحيث لا
يرجو اللحاق به العقاب القشعم
لكنه لما تقارب يومه
لم يدفع الحدثان عنه منجم

إلى غير ذلك مما قد تعرض له مناسبته فى موضع آخر فنورده .

وليس يعنينا هنا منزلة هذا الشعر فى ميزان النقد ، فإنا لا نتحدث عن الرشيد الشاعر ، بل الرشيد صاحب القصر وصاحب النادى الأدبى الأول فى بغداد ، وإنما الذى يعنينا هو دلالته على النزعة الأدبية عنده .

وسواء وضعنا هذه النزعة فى المكان الأول من ذلك النشاط الأدبى الذى امتاز به قصر الرشيد ، بالقياس إلى العاملين الآخرين من عوامل ذلك النشاط ، وأحدهما اعتبار الأدب من أمور العلم والمعرفة مظهراً من المظاهر التى يحرص أصحاب القصور وكبرى الدور عليها فى ذلك الوقت ، باعتباره لوناً من ألوان الترف التى لا بد من تمثيلها فى هذه القصور ، والآخر يتمثل فى الحاجة إلى الدعاية للدولة وإذاعة فضائل القائم عليها ، سواء كانت هذه النزعة الأدبية تعتبر العامل الأول من هذه العوامل ، أم كان غيرها أحق منها ، فإنها على كل حال عامل أصيل وعنصر قوى فى ذلك النشاط الأدبى الذى ظهر به

قصر الرشيد ، وأتاحه للحياة الأدبية عامة .

ولا ريب عندنا فى أنه كان لهذا العامل أثره فى حفز همم الشعراء الذين يقصدون القصر بشعرهم ، إلى التجود والتنوق فيه ، فقد كانوا يعلمون أن الرشيد رجل يحسن تذوق الشعر والتمييز بين طبقاته .

وقد حكى صاحب الأوراق عن أحمد بن سعد بن سالم عن أبيه ، قال : « كنت عند الرشيد ، فدخل أشجع ومنصور النمرى ، فأنشده منصور قصيدته :

ما تنقضى حسرة منى ولا جزع
إذا ذكرت شباباً ليس يرتجع

فمر — والله — فى قصيدة قلما يقول العرب مثلها ، ثم أنشده أشجع :

قصر عليه تحية وسلام نثرت عليه جمالها الأيام

فجعلت أرفع منه ، وتعصبت للقيسية ، فلما بلغ بيتيه :

وعلى عدوك يا بن عم محمد
رصدان : ضوء الصبح والإظلام
فإذا تنبه رعته ، وإذا غفا
سلت عليه سيوفك الأحلام

استحسن ذلك الرشيد . فأومأت إلى أشجع أن يسكت ،

فلم يفعل ومر فى شعره ، ففتر الرشيد بعد البيتين ، وكان عالماً بالشعر . ثم ضرب بمخصرة معه الأرض ، وقال : إن الشعر فى ربيعة سائر اليوم . فلما خرجت قلت لأشجع : ويحك ! ألا مت بعد البيتين »

وهكذا نرى أن إحساس الشعراء بنزعة الرشيد الأدبية ومنزلته فى نقد الشعر وتمييزه كان مما يجعلهم يحرصون على تجويد أشعارهم التى يتقدمون بها إلى القصر ، لا حرصاً على الجائزة فحسب ، ولكن حرصاً على سمعتهم الأدبية من ناحية ، وعلى سمعة قبائلهم من ناحية أخرى . فقد كان هنالك فى القصر نوع من التسبيق بين القبائل فى الشعر ، فكان ذلك مما يثيرهم ويحفزهم . ويجعل الأمر لا يتصل بالشاعر من ناحية شعوره الشخصى فقط ، ولكن من ناحية شعوره القبلى أيضاً ، كما نرى فى هذا الخبر الذى خذل فيه الرشيد قيساً ، وكان شاعرهم فى ذلك الوقت أشجع ، ليس لهم غيره ، لأنه لم يبلغ المبلغ الذى بلغه منصور النمرى ، وسائر شعراء ربيعة فى ذلك اليوم .

ومما يتصل ببيتى أشجع السابقين ، وبما نحن بصدده من بيان منزلة الرشيد الأدبية وبصره بالشعر ، ما حكاه أشجع من أن الرشيد سأله عن هذين البيتين : أنى صدر بهما ، فقال :

ــ لا أكذب ــ والله ــ من قول النابغة :

فإنك كالليل الذى هو مدركى
وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

فقال له الرشيد :

— صه ، هو عندى من كلام الأخطل لعبد الملك بن مروان ، وقد قال له : « أنا مجيرك من الجحاف » ، فقال : « من يجيرنى منه إذا نمت ؟ » .

فلم يكن الرشيد ذواقاً فحسب ، يعتمد على حاسته الفنية فى تمييز الشعر والتفضيل بين الشعراء ، وإنما كان إلى ذلك عالماً واسع الثقافة الأدبية ، مكتمل الأداة فيها . وقد حكى عن سعيد بن سلم أنه قال :

كان فهم الرشيد للشعر فهم العلماء . أنشده العمانى الراجز ، فى صفة فرس :

كأن أذنيه — إذا تشوفا — قادمة أو قلماً محرفا

فقال له الرشيد : دع « كأن » ، وقل : « تخال » ، حتى يستوى الشعر .

فبهذه النزعة الأدبية ، تمدها ثقافة واسعة لا ريب أنها مدينةأيضاً لهذه المجالس ، استطاع الرشيد أن يسددالنشاط الأدبى فى القصر ، ويرتفع به إلى ذلك المستوى الرفيع .

ذلك هو العامل الأول ، أما العامل الثانى فلا ريب فى أن

لشخصية الرشيد أيضاً مكانها فى توجيهه . فاعتبار النشاط الأدبى مظهراً من مظاهر الترف فى دور السراة أمر عام ، ولكن ذلك المظهر من مظاهر الترف كان يتخذ ألواناً مختلفة باختلاف أصحاب هذه الدور فى نوازعهم العقلية .

ويبدو أن الرشيد كان من أصحاب النزوع الأدبى بمعناه الخاص ، فطبيعته التى حاولنا أن نحللها ، والبيئة التى نشأ فيها ، تجعل هذا النزوع هو الغالب عليه ، فكانت مجالس الشعر والأدب تجد فى نفسه النزاعة إلى الاستمتاع بالحياة وتمثل صورها ، تجاوباً معها ، واغتباطاً بها ، إذ كان الشعر ليس إلا تصويراً للحياة ، وتوقيعاً على المشاعر الإنسانية المتصلة بها ، توقيعاً جميلا أخاذاً ينفذ إلى أعماق النفس .

فأما النزوع العقلى أو الفلسفى الذى نراه بعد عند رجل كالمأمون ، فلم يكن الرشيد منه فى شىء . ومن أجل هذا كان يذهب مذهب أهل الحديث ، أو أهل الكوفة عامة ، فكان — كما يقول الخطيب البغدادى — يكره المراء فى الدين والجدال ، ويقول إنه لخليق ألا ينتج خيراً .

وبذلك اتجه ذلك اللون من ألوان الترف إلى الأدب والشعر خاصة ، فصار هو الغالب على قصر الرشيد ، دون أن يكون

للمناظرات الدينية أو العقلية ، التى نراها بعدُ فى قصر المأمون ، أثر فيه .

فأما العامل الثالث وهو عامل الدعاية ، فقد كان أمراً له خطره فى توجيه ذلك النشاط الأدبى وجهة معينة ، هى وجهة التشيع للدولة القائمة ، لا فى الإشادة بمآثر الخليفة وفضائل العهد ، فحسب ، ولكن فى مهاجمة خصوم الدولة والغض منهم والتشهير بهم . وقد قالوا : إن أبان اللاحقى عاتب البرامكة فى إعطاء الرشيد الأموال للشعراء ، وفقره مع ذلك ، مع خدمته لهم وموضعه منهم ، فقال له الفضل البرمكى :

— إن سلكت مسلك مروان أو صلت شعرك ، وبلغتك إرادتك .

فقال أبان :

— والله ما أستحل ذاك .

فقال له الفضل :

— كلنا يفعل ما لا يحل . ولك بنا وبسائر الناس أسوة .

فمضى أبان ، فعمل قصيدته على ذلك الأسلوب ، فكانت موضع إعجاب الرشيد ، وأمر له بعشرين ألف درهم .

ومروان هذا الذى أشار إليه الفضل فى هذه القصة ، وأراد لأبان أن يذهب مذهبه ويصطنع أسلوبه ، هو مروان بن أبى



« إن الخيزران كانت تمثل القصر فى سياسة الدولة
وإدارة شؤونها ومعالجة مشكلاتها »

(انظر صفحة ٤٢)

حفصة ، وقد كان مذهبه الذى عرف به الإسراف فى الدعاية للعباسيين بمهاجمة الطالبيين وتهجين رأيهم فى المطالبة بالخلافة ، ومن ذلك شعره المشهور الذى أثار ثائرة العلويين ، وكان – فيما يزعم بعض الرواة – كافياً لأن يترصد له أحدهم ويقتله خنقاً :

خلوا الطريق لمعشر عاداتهم
حطم المناكب كل يوم زحام
ارضوا بما قسم الإله لكم به
ودعوا وراثة كل أصيد حام
أنى يكون – وليس ذاك بكائن –
لبنى البنات وراثة الأعمام

أو قوله من قصيدة أخرى ، يخاطب العلويين أيضاً :

هل تطمسون من السماء نجومها
بأكفكم أو تسترون هلالها
أو تجحدون مقالة من ربكم.
جبريل بلغها النبى فقالها
شهدت من الأنفال آخر آية
بتراثهم فأردتم إبطالها

وكذلك كان من سبب الحظوة التى ظفر بها منصور النمرى

عند الرشيد أنه « عرف — كما يقول أبو الفرج — مذهبه فى الشعر ، وإرادته أن يصل مدحه إياه بنفى الإمامة عن ولد على ابن أبى طالب — عليهم السلام — والطعن عليهم ، وعلم مغزاه فى ذلك ، مما كان يبلغه من تقديم مروان بن أبى حفصة وتفضيله إياه على الشعراء فى الجوائز ، فسلك مسلك مروان فى ذلك، ونحا نحوه » . ومن هذا المذهب الذى ذهب إليه ، واستجاب به لذلك الإغراء الذى جعل يهيب به ، ما يقوله فى قصيدته التى قالها فى حادث يحيى بن عبدالله الطالبى ، إذ يقول :

مننت على ابن عبدالله يحيى   وكان من الحتوف على شفير
فإن شكروا فقد أنعمت فيهم   وإلا فالندامة للكفور
وإن قالوا : بنو بنت ، فحق   وردوا ما يناسب للذكور
وما لبنى بنات من تراث   مع الأعمام فى ورق الزبور

وهكذا أخذ عامل الدعاية يوجه الشعر ، ويطبع شعراء القصر بطابعه .

ولعل شيئاً من ذلك كان من عمل ديوان الشعر الذى أنشأه الرشيد ، وألحقه بقصره ، وجعل عليه أبان بن عبد الحميد اللاحقى ، بعد أن سلك السبيل المرسومة ، واستطاع أن يظفر بإعجاب الخليفة والحظوة عنده على الوجه الذى رأينا . وقد كان له ، وهو على ذلك الديوان ، أن ينظر فى قصائد الشعر المرفوعة

إلى القصر ، يجيز منها ما يجيز ، وينفى ما ينفى . ونحن نستطيع أن نفترض دون كبير تحرج أن روح الدعاية والنظم الموضوعة لها كانت تداخل المقاييس التى يصطنعها ديوان الشعر فى تقدير القصائد .

على أننا نرى — إلى جانب ذلك — أن فى إنشاء ذلك الديوان نوعاً من التنظيم للنشاط الأدبى فى قصر الرشيد ، بعد أن كثر الشعراء الوافدون على القصر ، الذين اجتذبهم إليه من هنا وهنا ما كان يملأ الأرجاء عنه ، فكان لا بد من مثل هذا الديوان ، تمر القصائد من خلاله إلى مجلس الخليفة ، فتقدم إليه : ينشدها له رجل كان ذلك عمله ، فصيح المنطق ، حسن الإنشاد ، يقال له : « محمد البيدق » . وبمقدار أثر الشعر فى نفس الخليفة تكون جائرته . وأكبر الظن أن ديوان الشعر كان هو الصلة كذلك بين الشاعر وبين ديوان الخاصة فى تسلم جائزته .

ولم يكن — بطبيعة الحال — كل الشعراء يعاملون هذه المعاملة ، أو يأخذ شعرهم تلك السبيل ، وإنما كان ذلك للشعراء الذين لم تتوثق بالقصر أسبابهم ، أما من عداهم فينشدون الرشيد فى أكثر الأحوال بأنفسهم .

وكذلك ينبغى ألا يؤخذ القول عن الدعاية على عمومه ، فلم

يكن كل الشعر يوزن بميزانها أو يقدر على أساسها ، فقد كان هنالك من الشعراء من يقدرهم الخليفة ، ويعجب بهم ، ويسنى العطاء لهم ، عن شعر لم يوجه هذه الوجهة ، ولم يتأثر بتلك الغاية ، ولم يصدر ذلك المصدر ، كما كان الشأن فى شاعر كأبى العتاهية ، أو العباس بن الأحنف ، فقد كان أكثر شعر أبى العتاهية فى الزهد والحكمة والمثل ، كما كان شعر العباس بن الأحنف فى الغزل والنسيب وشكوى الهوى . وكان لكل منهما منزلته العالية فى القصر ، ومكانه الرفيع عند الخليفة . وإن كانا يختلفان فى هذه المنزلة ، إذ كان أبو العتاهية آثر عند الرشيد من العباس بن الأحنف ، حين كانت تقع المفاضلة بين الرجلين لاشتراكهما فى السهولة والطبع وقرب المأخذ . ولعل الأمر كان يرجع فى هذا إلى أن أبا العتاهية كان أقدم وأوثق صلة بالقصر والرشيد ، إلى غير ذلك من الاعتبارات .

وإذا كان أبو العتاهية والعباس بن الأحنف يمثلان هذين النوعين من الشعر بين وجوه النشاط الشعرى التى كانت تتجلى فى قصر الرشيد ، فهناك نوع آخر من الشعر يختلف عنهما أشد الاختلاف فى موضوعه ، وإن كان يتفق معهما فى السهولة وقرب المأخذ ، وكان له أيضاً مكانه فى القصر ، وهو شعر العبث والمجون . ونعرف ممن كان يمثله فيه رجلين : أبا حفص

الشطرنجى ، والحجاج بن يوسف الصيقل .

فأما أبو حفص فقديم الصلة بالقصر ، نشأ فيه منذ أيام المهدى ، ثم انقطع إلى علية أخت الرشيد ، كاتباً لها وأميناً لأسرارها ، يمضى معها إذا تزوجت ، فإذا عادت إلى القصر عاد معها . ويصفه محمد بن الجهم البرمكى بقوله : « رأيت أبا حفص الشطرنجى الشاعر ، فرأيت منه إنساناً يلهيك حضوره عن كل غائب ، وتسليك مجالسته عن هجوم المصائب ، قربه عرس ، وحديثه أنس ، جده لعب ، ولعبه جد ، دين ماجد ، إن لبسته على ظاهره لبست موموقاً لا تمله ، وإن تتبعته لتستبطن خبره وقفت على مروءة لا تطير الفواحش بجنباتها »[١] .

ويبدو أنه كان يميل فى شعره إلى العبث ، ولكنه كان متحرزاً عن المجون والرفث ، بخلاف صاحبه يوسف الصيقل ، فقد كان فيما يبدو لا يتحرز من ذلك ، بل كان يسرف فيه . وكان كاتباً كأبى حفص ، ولكنه استطاع بأسلوبه العابث فى الشعر ، أن يتصل بالقصر ، ويعقد صلته بالهادى ثم بالرشيد .

* * *

وبعد فهذه بعض العوامل التى كانت تداخل أمر الشعر فى قصر الرشيد ، وهذه بعض الصور التى نستطيع أن نتمثل بها النشاط الشعرى فيه . على أنه كان هنالك من مظاهر النشاط

الأدبي ما كان بطبيعته بعيداً عن التأثر بروح الدعاية أو الهوى السياسى ، كتلك المجالس الأدبية التى كانت تنعقد فى مجلس الرشيد بين علماء الأدب المتصلين به ، كالكسائى والأصمعى واليزيدى .

ونكتفى فى هذا الحديث بهؤلاء الثلاثة لتمثل هذه المجالس . والأول يمثل الكوفة ، وإن كان فيه — كما يقولون — آثار بصرية ، والآخران يمثلان البصرة . وكل من هؤلاء الثلاثة يمثل لوناً من العلم ، وأسلوباً فى التفكير خاصا ، فلا جرم كان اجتماعهم مثاراً للجدل والمناظرة فى مسائل اللغة والأدب .

فأما الكسائى على بن حمزة فرجل لغة ، تتجه عنايته الأولى إلى جمع مفرداتها ، والتماس شواردها ، والتكثر بذلك . ثم ذهب يلتمس النحو فى البصرة ، وجعل يصطنع القياس ، على حرص منه بالغ على جهته الأولى ، وهى جمع اللغة من كل سبيل ، فأخطأ بذلك الأصل الذى بنت عليه البصرة نحوها ، وإن كان تكلفه للقياس مع هذا الحرص أنشأ له نوعاً من المرانة فيه عرف بها . وكذلك كان اتجاهه إلى اللغة والتكثر منها والتحفظ لها ، مما حال بينه وبين الدقة فى فهم الشعر ، والتذوق له ، والبصر به . فكان فى ذلك — كما يقول إسحاق بن إبرهيم الموصلى عنه — : « من أشد خلق الله تسكعاً فى تفسير شعر » ، وكما يقول عنه

مرة أخرى : « ما رأيت رجلا منسوباً إلى العلم أجهل بالشعر من الكسائى » .

وأما اليزيدى يحيى بن المبارك ، فكان رجلا عالماً باللغة أيضاً ، واسع العلم بها ، ولكنه تلقاها والنحو معاً عن شيخى البصرة : أبى عمرو بن العلاء والخليل بن أحمد ، فتسايرا فى اتساق وائتلاف . وكان منظم العقل بحكم نشأته فى البصرة ، وتلقيه عن شيوخها من أصحاب القياس المحكم ، ومخالطته لعلمائها العقليين من رجال الاعتزال ودعاته . ثم كان مع هذا رجلا أديباً يحسن تذوق اللغة والنفوذ فيها ، شاعراً يقول الشعر فى اغراضه وخلجات نفسه ، كقوله فى السخرية بالكسائى ، ومذهبه فى النحو :

كنا نقيس النحو فيما مضى ... على لسان العرب الأوّل
فجاء أقوام يقيسونه ... على لغى أشياخ قطربّل
فكلهم يعمل فى نقض ما ... به يصاب الحق ، لا يأتلى
إن الكسائى وأصحابه ... يرقون فى النحو إلى أسفل

فقد كان الكسائى واليزيدى مختلفين — كما نرى — اختلافاً تاما ، وإذا كان هنالك أشياء تجمعهما ، فهى التى تجمع لتفرق ، كاتفاق الصناعة ، والمنزلة فى القصر ، مما كان يلقى بينهما كثيراً من المنافسة . فكلاهما كان مقرئاً ، وكانا يقرئان

الناس فى مسجد واحد ببغداد . وكلاهما كان مؤدباً ، فكان الكسائى مؤدب الأمين ، واليزيدى مؤدب المأمون . وكلاهما كان قديم الصلة بالقصر وثيقها ، فكان ذلك كله مع ما رأينا من الخلاف بين مزاجهما العقلى ومذهبهما العلمى ، مما هو جدير أن يوسع شقة الخلاف بينهما .

وأما الأصمعى عبد الملك بن قريب ، فكان يخالف كلا من الرجلين خلافاً شديداً ، وإن كان بصرياً كاليزيدى ، وإن كان رجل لغة مثله ، عالماً بالشعر علمه . ولكنه لم يعن بالنحو والقياس ، وإنما كان مذهبه جمع الشعر والخبر ، والاستطراف من ذلك ، واستبضاعه فى المجالس التى يغشاها . ويمثل مذهبه قوله المشهور : « بالعلم وصلنا ، وبالملح نلنا » . وبذلك كان أحسن من صاحبيه تأتياً ، وأخف منهما محضراً ، وأحظى منهما ، بما يخلط بين العلم والملح . وإن كانا أقدم بالقصر صلة منه . فكان ذلك أيضاً مما هو جدير أن يفسح فى مجافاة ما بينهما ، وأن يجعل اليزيدى يبسط فيه لسانه ، بالسخرية منه ، والتشهير به ، فيقول مثلا :

أبن لى ، دعىّ بنى أصمَع :
متى كنت فى الأسره الفاضله ؟

ومن أنت ؟ هل أنت إلا امرؤ
– إذا صح أصلك – من باهله ؟

وللباهلي على خبزه
كتاب يحرمه آكله ،

فهؤلاء ثلاثة من علماء العربية من أصحاب مجلس الرشيد ، ممن نستطيع أن نتمثل بهم شيئاً من صور النشاط الأدبي العلمي في القصر ، وممن كان الخلاف بين أمزجتهم وأساليبهم وحالات نفوسهم مما يتيح لذلك النشاط مجالا أرحب ، إذ كان ذلك يستخرج كوامنهم فيما يعقدون في مجلس الخليفة من مجالس الجدل والمناظرة . وقد كانوا – فيما يبدو – يصيبون في مجالسهم هذه أكبر نصيب من حرية القول ، حتى ما كانوا يتحرجون في مناظراتهم مما قد يكون خروجاً على تقاليد القصر ، وآداب المجلس الكريم ورسومه .

وإذا كان ما وصل إلينا عن هذه المجالس هو في معظمه إما ظاهر الوضع ، وإما شديد الاقتضاب ، لا يمكن أن يؤدي إلينا الصورة بتفاصيلها ، إلا أنا نستطيع أن نتمثل ذلك الذي نقرره على وجه ما في هذا الخبر الجدير عندنا أن يكون صحيحاً :

اجتمع الكسائي واليزيدي في مجلس الرشيد ، وفي المجلس

يحيى بن خالد البرمكى ، وكان اليزيدى — كما نعرف — مولعاً بالكسائى : يكايده ، وكان يعرف موطن ضعفه ، فأعد له بيتين من الشعر : يسأله عنهما ، أو يعاييه بهما ، ولعله إنما صنعهما صناعة ، وهما :

ما رأينا خرباً نـ ـقر عنه البيض صقر
لا يكون العـير مهراً لا يكون ، المهر مهر

ويبدو أن اليزيدى رأى فى هذين البيتين ، أو جعلهما ، غمزاً لصاحبه الكسائى وتعريضاً به ، فأنشدهما إياه ، وهو يخفى هذا التعريض ، ويظهر المسألة ، فيقول له :

— انظر ، أفى هذا الشعر عيب ؟

فينظر الكسائى ، فتبتدره « يكون » فى الشطر الثانى من البيت الثانى ، وإذن فما بعدها اسم وخبر ، وإذن فهناك إقواء ، إذ خالف الشاعر بين حركة « صقر » وهى رفع ، وحركة « مهر » وهى نصب . كما خيل إليه . وحال ذلك الخاطر العجل بينه وبين النظر فى معنى البيتين ، فوقع فى الفخ الذى نصبه له اليزيدى ، وقال :

— قد أقوى الشاعر .

ولكن اليزيدى يريد أن يضيق عليه ، ويزداد من العبث به ، فيقول له :

ـ انظر فيه ، وحقق النظر .

ولكن المسألة فيما يرى الكسائى بديهية لا تحتاج إلى نظر ومراجعة وتحقيق ، وحكم النحو الصريح واضح فيقول له ، وملؤه ثقة وطمأنينة ويقين :

ـ أقوى . لا بد ينصب المهر الثانى على أنه خبر كان .

وهكذا أحكم الوثاق حول الكسائى ، فلا سبيل إلى الرجوع عما يقول ، وهنا نرى اليزيدى يستخفه هذا الموقف ، فيضرب بقلنسوته الأرض ، دون رعاية لتقاليد هذا المجلس ، ويقول :

ـ أنا أبو محمد . الشعر صواب ، وإنما ابتدأ فقال : « المهر مهر » .

وتبدو الحقيقة فجأة أمام الكسائى . فيأخذه شىء من الخجل . ولكن يحيى بن خالد ، وكان كما نعلم يميل إلى الكسائى ، ويعطف عليه ، ويفضله على الأقل بإزاء هذا البصرى ، يشفق عليه ، فهو يريد أن يغطى هذا الموقف ، فيلتفت إلى اليزيدى فى هيئة المؤنب ، ويقول له :

ـ أتكتنى بحضرة أمير المؤمنين ، وتكشف رأسك ؟ والله لخطأ الكسائى مع أدبه أحب إلينا من صوابك مع سوء فعلك .

فيرجع اليزيدى إلى نفسه ، ويقول له :

– لذة الغلبة أنستنى من هذا ما أحسن .

ولعلنا نستطيع من هذا الخبر أن نرى أن مجالس المناظرة فى القصر كانت تنعقد فى جو أدنى إلى الحرية منه إلى التقيد بقيود التقاليد والسنن المرعية ، وأن يحيى بن خالد لم يؤنب اليزيدى إلا لأنه تجاوز حد الحرية إلى حد الإساءة . ولعله لم يعرض بمخالفة هذه السنن إلا حمية لصاحبه الكسائى أكثر من أن يكون غيرة على هذه السنن وحفاظاً لها .

كما نستطيع إلى جانب ذلك أن نتبين فيما أوردنا صورة من هذه المجالس ، نكتفى فى هذا الحديث بها .

٦

وإذا كانت السياسة قد استطاعت أن تداخل النشاط الأدبي مداخلة ما ، فتوجهه أو تحرفه ، على النحو الذى رأينا طرفاً منه ، فقد استطاع النشاط الفنى فى قصر الرشيد أن يبرأ من هذا التأثير ، إلا شيئاً ضئيلا نستطيع أن نلمحه حين نرى رجلا كيحيى المكى المغنى يتنكر لولائه لبنى أمية ، فإذا سئل عن جهة هذا الولاء أطلق القول بأنه مولى قريش ، ولكن مثل ذلك شىء لا خطر له ، فقد بلغ النشاط الفنى غايته فى قصر الرشيد ، دون أن يحده شىء ، أو يفسده غرض ، أو يحرفه هوى . وكانت معانى الشعر الذى يتغنى به المغنون — فى معظمه — مما يتصل بالعواطف الإنسانية عامة ، وقل من ذلك الشعر ما كان فى مدح الخليفة ، فقد كان الاعتبار الفنى هو الاعتبار السائد الذى لا يكاد يقوم إلى جانبه اعتبار آخر .

ولقد أشرنا من قبل إلى مبلغ النزعة الفنية عند الرشيد ، ومنزلته من ذلك عند أئمة الموسيقى فى عصره . ولا ريب أن ذلك يرجع فى بعضه إلى طبيعته ورهافة حسه وقوة حيويته ، كما رأينا ، ولكنه يرجع من ناحية أخرى إلى نشأته فى قصر المهدى ،

كما ذكرنا فى الفصل السابق . وقد عرضنا هنالك لبعض الأسباب والملابسات التى لابست عصر المهدى ، وجعلت قصره يغص بالوافدين عليه من الشعراء ، والأمر كذلك فيما يتصل بالغناء والمغنين ، فلم تكد الأمور فى العراق تهدأ وتستقر حتى أخذت تستقبل معظم الذين كانت تتمثل بهم حياة الغناء واللهو فى الحجاز . وكان هؤلاء ما تزال قلوبهم تهفو إلى العراق منذ اضطربت الحياة فى الحجاز ، باشتعال الخصومة بينه وبين الدولة فى الشام ، فكانت فتنة ابن الزبير وموقعة الحرة ، وكان اضطهاد الدولة للحجازيين وشخصياتهم الظاهرة ، وأصاب أصحاب الغناء من ذلك ما أصابهم ، فأخذوا يتجهون نحو العراق ، يلتمسون فيه حياتهم المادية ومجدهم الفنى ، وافدين أو مهاجرين .

حتى إذا كان عهد المهدى بلغ هذا الاتجاه أوجه ، وجعل المهدى يشجعه باستقدامه لهذا أو ذاك ، وبما كان يجزل من العطاء لهم ، فقد رجع أحدهم ، وهو دحمان المغنى ، وفى حاصله مائة ألف دينار . وانتقلت الحياة الفنية من الحجاز إلى العراق ، وتركزت مظاهرها فى قصر المهدى ، فكان هنالك من مشهورى المغنين من أهل الحجاز دحمان هذا ، وإبرهيم بن خالد المعيطى ، ويحيى المكى ، وابن عباد الكاتب ، ويزيد

حوراء ، وفليح بن أبى العوراء ، إلى غيرهم ممن غابت عنا أو عن التاريخ الذى بين أيدينا أسماؤهم . وانتقل معها بذلك كثير من أصحاب النادرة والإضحاك من أهل الحجاز ، كمزبد ، والهيثم بن مطهر ، وأبى الحارث جمين . وبذلك أصبح قصر المهدى خير بيئة تتمثل فيها تلك الحياة الفنية أو الحياة اللاهية ، بألوانها المختلفة .

وفى هذه البيئة نشأ الرشيد ، وتأثرت — ولا ريب — نزعاته أبلغ التأثر بها . فأصبح الميل إلى السماع واللهو عنصراً من العناصر الأصيلة فى حياته ، بالرغم من إشفاق أبيه المهدى من بعض تبعات ذلك ، ومقاومته بعض مظاهر هذا الميل فيه ، وتحريمه على إبرهيم الموصلى أن يدخل عليه ، لأن إبرهيم كان مستهتراً بالنبيذ ، مسرفاً فى شربه .

فإذا أفضت الخلافة إليه فقد ملك جميع أسبابه إلى أن يبلغ بقصره فى تمثيل تلك الحياة الأثيرة عنده أقصى ما تطمح إليه أهواؤه ، ويزينه له خياله المتفتح ، وشبابه المتوثب ، وهذه البطانة الفنية التى تحيط به وعلى رأسها إبرهيم الموصلى . ثم ظلت حياته كلها متصلة بالغناء ، لا يستطيع الصبر عنه ، سواء كان مقيما أم مسافراً .

وقد بسط رعايته على المغنين فى طبقاتهم المختلفة ومذاهبهم

المتعددة . وأظلهم بحمايته مما عسى أن يعرض لهم من كيد الزمن أو ضيق الحياة . فأجزل العطاء لهم إلى حد لم يبلغه أحد من قبله .

ولقد ذكر إسحاق بن إبرهيم الموصلى أن جملة ما أخذه أبوه إبرهيم من الرشيد — وقد عاصره ثمان عشرة سنة — مائتا ألف دينار . وكان يتعهدهم ويسأل عنهم ، وقد يزور مريضهم بنفسه ، كما فعل فى مرض إبرهيم الموصلى ، أو يرسل رسولا يؤدى عنه ، كما فعل فى مرض يزيد حوراء ، إذ بعث إليه بمسرور يبلغه سؤاله عنه .

وكان يحفظ للرجل منهم عهده ، ويرعى حرمته إذا قضى نحبه ، ومن ذلك ما حكاه إبرهيم الموصلى أنه كان لزلزل الضارب جارية قد رباها وعلمها الضرب ، وكانت مطبوعة حاذقة ، فكان يصونها أن يسمعها أحد . فلما مات بلغ إبرهيم أنها تعرض فى ميراثه للبيع ، فصار إليها ليعترضها ، فجعلت تغنى بشعر كان صديق لسيدها رثاه به :

أقفر من أوتاره العـــود   فالعـــود للأوتار معمود
وأوحش المزمار من صوته   فما له بعـــدك تغريد
من للمزامـــير وعيدانها   وعامر اللذات مفقود ؟
الخمر تبكى فى أباريقهـــا   والغـــادة الخمصانة الرود

فمست الجارية بذلك الغناء شغاف قلب إبرهيم ، فمضى إلى الرشيد فحدثه حديثها ، فأمر بإحضارها ، ثم قال لها :

ــ أتحبين أن أشتريك ؟

فقالت :

ــ يأمير المؤمنين ! لقد عرضت على ما يقصر عنه الأمل . ولكن ليس من الوفاء أن يملكنى أحد بعد سيدى ، فينتفع بى .

فأمر بأن تبتاع وتعتق ، ولم يزل يجرى عليها إلى أن ماتت .

فلقد كانت حرمة الغناء إذن عند الرشيد حرمة وثيقة مؤكدة ، وكانت وسيلة المغنين إليه وثيقة قوية ، وبه استطاع هذا الفن أن يبلغ الغاية ، وأن يجمع الألوان المختلفة منه ، ثم يؤلف منها غناء عربيا .

وكان الرشيد حريصاً على الاحتفاظ بالميراث الغنائى . ففى عهده وضع يحيى المكى كتابه فى الأصوات ونسبتها ، وفى عهده ألفت ــ بأمر منه ــ (لجنة) من إبرهيم الموصلى وإسماعيل ابن جامع وفليح بن العوراء ، لتنظر فى الأصوات المختلفة القديمة ، وتجمع منها مائة صوت تعتبر خيرة هذه الأصوات . فإذا كان هذا الفن قد سار منذ ذلك العهد فى السبيل التى استنها علماء الحديث ، فعنى بحفظ أسانيد الأصوات وتسجيلها ، فكذلك ــ فيما نحسب ــ كان شأنه فى هذه

الأصوات المختارة ، فقد جارى علماء الأدب فى العناية بتدوين المختارات ، كما صنع المفضل الضبي من قبل بقليل .

* * *

وبعد فهذه صورة من رعاية الرشيد لفن الغناء ، فلا جرم استطاع القصر فى عهده أن يظفر بذلك المجد الفنى ، وذلك الصيت البعيد الذى ذهبت الأخيلة كل مذهب فى تخيله وتصور ألوانه . وقبلَ أن نعرض بعض صور ذلك النشاط الفنى فى قصر الرشيد ، نحاول أن نتعرف شيئاً من النظم المتبعة فى مجالس الغناء فيه ، حتى نستطيع أن نتمثل تلك الصور تمثلا أدنى إلى الدقة .

ونظم القصر عند العباسيين هى — كما قلنا — مشتقة من نظم القصر الفارسى ، مأخوذة عنه ، كمعظم النظم السائدة فى ذلك العهد ، كما يقول صاحب كتاب التاج عن ملوك الأعاجم ، إنهم هم « الأول فى ذلك وعنهم أخذنا قوانين الملك والمملكة ، وترتيب الخاصة والعامة ، وسياسة الرعية ، وإلزام كل طبقة حدها ، والاقتصار بها على جديلتها » ، ثم يقول بعد ذلك عن الرشيد إنه « من بين خلفاء بنى العباس من جعل للمغنين مراتب وطبقات ، على نحو ما وضعهم أردشير بن بابك وأنوشروان » .

وكانت السنة المتبعة منذ عهد أردشير — كما يقرر ذلك صاحب التاج : « أن يكون بين مجلس الملك ومجالس ندمائه ستارة منصوبة . كان يوكل بها فى أيام الساسانيين رجل من أبناء الأساورة ، يطلق عليه « خرم باش » ، وكان يسمى فى أيام العباسيين « صاحب الستارة » . ويأخذ هؤلاء الندماء مجالسهم أمام الستارة ، على طبقات ثلاث ، بحيث يكون بين الطبقة الأولى والستارة عشرة أذرع ، وكذلك تكون المسافة بين كل طبقة والتى تليها . »

وقد اصطنع القصر العباسى ، وخاصة فى أيام الرشيد ، هذه السنة ، وجعل المغنين فى طبقات ثلاث : « فكان إبرهيم الموصلى وإسماعيل بن جامع ومنصور زلزل الضارب فى الطبقة الأولى . وكان زلزل يضرب ويغنى هذان عليه . والطبقة الثانية سليم بن سلام وعمرو الغزال ومن أشبههما ، والطبقة الثالثة أصحاب المعازف والونج والطنابير . وعلى قدر ذلك كانت تخرج جوائزهم وصلاتهم . »

فتلك هى صورة مجلس الرشيد حين يجلس للسماع ، ولكنه مجلسه « الرسمى » . ولا ريب أنه كان للرشيد مجالس أخرى خالصة من هذه القيود و « الرسميات » ، ولا سيما إذ كان يتخذ مجلسه فى خاصته وعند أهله وحرمه ، مما سنعرض له فى الفصل التالى .

كما كان يضيق أحياناً بمقامه فى القصر ، فيقصد إلى منزل إبرهيم الموصلى . وكان منزله مثابة للقيان ، إذ كان قد اصطنع تعليمهن وتثقيفهن ، واتخذ ذلك عقدة له يستغلها : كان يشترى الجوارى الحسان اللواتى يتوسم فيهن موهبة الغناء ، فلا يزال بهن حتى يبلغن الغاية ، فيغالى بأثمانهن . وكان كثير من سراة بغداد يبعثون إليه بجواريهن ، رغبة فى أن يطارحنه ويأخذن عنه ، كما كانت تصنع علية بنت المهدى ، فكانت داره بذلك متعة السمع والبصر ، فكان الرشيد يختلس فى بعض الأحيان زيارته ، والجلوس عنده ، والسمر معه ، والاستماع لديه إلى غناء المغنيات وضرب الضاربات .

ودار أخرى كان الرشيد يكثر من غشيانها أيضاً لتلك الغاية ، وهى دار وزيره يحيى بن خالد البرمكى ، من أجل مولاته دنانير ، وكانت — كما يقول أبو الفرج — من أحسن الناس وجهاً ، وأظرفهن وأكملهن ، وأحسنهن أدباً ، وأكثرهن رواية للغناء والشعر . وقد كانت هى أيضاً من تلميذات الموصلى ، ولكنها كانت إلى جانب قدرتها على التلحين وصناعة الأصوات ، بارعة فى حكاية الغناء وتأديته فى دقة وإحكام ، بصوتها الرائع المصفى . فكان الرشيد كثير الإعجاب بها ، كثير التردد على دار يحيى لسماعها ، لمسرفاً فى إجازتها ، حتى لقد وهب لها فى

يوم عيد عقداً قيمته ثلاثون ألف دينار ، وحتى وجدت أم جعفر على زوجها في ذلك ، فشكته إلى أهله وعمومته .

وقد بلغ عدد المغنين والضاربين فى أيام الرشيد ، وممن كانوا يغنون ويضربون فى القصر ، مبلغاً كبيراً لم يصل إليه من قبل . فكان هنالك إلى جانب إبرهيم وابن جامع من أهل الطبقة الأولى ، إسحاق الموصلى ، وفليح بن أبى العوراء ، ويزيد حوراء ، وحكم الوادى ، وعمرو بن أبى الكنات ، ومخارق ، وعاتكة بنت شهدة ، وغيرهم . وإلى جانب سليم بن سلام وعمرو الغزال من أصحاب الطبقة الثانية ، حسين بن محرز ، وزبير بن دحمان ، ومحمد الزف ، وعقيد ، وعلوية ، ويحيى بن سعد بن صغير العين ، والمعلى ، وزكار ، ومن إليهم .

وكان فى هذه الطبقة الثانية برصوما الزامر ، ثم رفع إلى الطبقة الأولى ، فى قصة يحكيها صاحب كتاب التاج أن الرشيد طرب يوماً لزمره ، فقال له صاحب الستارة :

— يا إسحاق ! ازمر على غناء ابن جامع .

فقال برصوما :

— لا أفعل .

قال صاحب الستارة :

— يقول لك أمير المؤمنين ، ولا تفعل ؟

قال :

— إن كنت أزمر على الطبقة العالية رفعت إليها ، فأما أن أكون فى الطبقة الثانية وأزمر على الأولى ، فلا أفعل .

فقال الرشيد لصاحب الستارة :

— ارفعه إلى الطبقة الأولى .

وظل بعد ذلك يزمر على غناء ابن جامع » .

وربما كان ذلك شيئاً من تدبير ابن جامع له ، فقد كانا متفاهمين صديقين ، وكان ابن جامع يجد فى زمره على غنائه ما يعينه على تأديته أداء جيداً ، أو كما يقول هو فى ذلك : « إذا ابتدأت فتغنيت فى الشعر ، عرف الغرض الذى يصلح ، فما يجاوزه ، وكنت معه فى راحة » .

وكما كان برصوما زامر ابن جامع ، كان إسحاق بن عمرو بن بزيع ضارب إبرهيم بن المهدى ، وكان زلزل ضارب إبرهيم الموصلى ، وكان صهره ، إذ كان زوج أخته ، وعنه تلقى الموصلى الضرب بالعود . وكان قليل من المغنين فى ذلك الوقت من يغنى ويضرب معاً ، وإنما كان أكثر ذلك فى أصحاب الطبقة الثانية كمحمد الزف . ومحمد بن حمزة بن نصير الوصيف . وإنهم ليشيدون بحكم الوادى — وكان من أهل الطبقة الأولى — لأنه كان حاذقاً بالغناء وبالنقر على الدف معاً .

وقد كان من الطبيعى أن تثور المنافسة بين هؤلاء المغنين الذين يجمعهم مجلس الرشيد ، فلا نلبث حتى نرى القوم حزبين متناظرين ، يحسد أحدهما الآخر وينافسه ويكيد له . وكان على رأس أحد الحزبين إبرهيم الموصلى ، وعلى الآخر إسماعيل بن جامع . وكان يشايع الموصلى أكثر أهل الطبقة الثانية من المغنين ، إذ كانوا تلاميذه وخريجيه ، وكان إبرهيم ابن المهدى يقف إلى جانب ابن جامع وينصره ويحامى عنه . وربما كان ذلك عنصراً قويا من عناصر الخصومة التى نشبت — فيما بعد — بين إبرهيم بن المهدى وإسحاق بن إبرهيم الموصلى . وإن كان الأصل فيها — فيما يظهر — اختلاف المذهبين فى الغناء .

ولعل الموصلى كان أجود صنعة وأحسن فى التلحين افتناناً وأدق له أداء ، ولكن طبيعة صوته لم تكن هنالك . فكان لا بد له أن يجيد اللحن ويحكمه ويفتن غاية الافتنان فيه ، حتى يستطيع بذلك أن يغطى على رداءة صوته ، وأن يصرف السامع إلى فنه . فإن اللحن إذا كان فيه شىء من ضعف أو تهاون سقط مع ذلك الصوت . أما الصوت الحسن ، كما كان صوت نظيره ومنافسه ابن جامع ، فهو حاضر دائماً ، يفتن الناس دائماً ، ومن ذلك كانت هذه المقارنة بين الرجلين على لسان برصوما الزامر ، إذ يقول :

« الموصلى بستان : تجد فيه الحلو والحامض وطريا لم ينضج . فتأكل منه من ذا وذا ، وابن جامع زق عسل : إن فتحت فمه خرج عسل حلو ، وإن خرقت جنبه خرج عسل حلو ، وإن فتحت يده خرج عسل حلو ، كله جيد » .

وقد كان الموصلى يدرك ذلك من نفسه ، ويعرف الثغرة التى ينفذ منها ابن جامع إلى الغلبة عليه فى بعض الأحيان ، فكان يستعين أحياناً بتلاميذه ، يلقن أحدهم الصوت ، فيؤديه فى مجلس الرشيد عنه ، بصوته الحسن ، كما نرى فى هذه القصة التى نسوقها هنا لأنها تبين لنا ذلك ، كما تؤدى إلينا فى الوقت نفسه صورة من مجالس الغناء فى قصر الرشيد :

توافى المغنون والضاربون إلى مجلس الغناء فى القصر ، وأخذ كل مجلسه ، وكان من بينهم إسماعيل بن جامع وإبرهيم الموصلى فى الطبقة الأولى ، ومخارق تلميذ الموصلى فى الطبقة الثانية . فابتدأ ابن جامع فغنى من تلحينه هذا الصوت :

هاج شوقاً فراقك الأحبابا
فتناسيت — أو نسيت — الربابا

حين صاح الغراب بالبين منهم
فتصاممت إذ سمعت الغرابا

لو علمنـــا أن الفراق وشيك
ما انتهينا حتى نزور القبابا
أو علمنـــا حين استقلت نواهم
ما أقمنـــا حتى نزم الركابا

فافتن فيه ، وظفر باستحسان الرشيد له وإعجابه به ، حتى لقد استعاده مراراً ، وشرب عليه أرطالا ، حتى سكر ، وما سمع غيره ، ولا أقبل على أحد من المغنين ، ثم أمر لابن جامع بخمسة آلاف دينار .

ثم انتهى المجلس وانصرف المغنون ، ولكن الموصلى كان قد أخذ الألم منه كل مأخذ ، لإقبال الرشيد على ابن جامع دونه ، وإنه ليعلم موطن الضعف فيه ، فمضى هو وتلميذه مخارق ، وهو يفكر ويدبر . ثم ذهب كل منهما إلى داره ، بعد أن تواعدا على أن يوافى الموصلى تلميذه فى داره بعد قليل . فما كان إلا ريثما قضى مخارق بعض حاجته حتى كان أستاذه الموصلى عنده ، فجلس وجلس هو بين يديه ، ثم قال له :

— يا مخارق ! أنت فسيلة منى ، وحسنى لك ، وقبحى عليك . ومتى تركنا ابن جامع على ما ترى ، غلبنا على الرشيد . وقد صنعت صوتاً على طريقة صوته الذى غناه ، أحسن صنعة منه ، وأجود وأشجى . وإنما يغلبنى عند هذا الرجل بصوته ،

ولا مطعن على صوتك . وإذا أطربته وغلبته عليه بما تأخذه منى ، قام ذلك لى مقام الظفر . وسيصبح أمير المؤمنين غداً ، فيدخل الحمام ، ونحضر ، ثم يخرج فيدعو بالطعام ، ويدعو بنا ، ويأمر ابن جامع فيردّد الصوت الذى غناه ، ويشرب عليه رطلا ، ويأمر له بجائزة . فإذا فعل فلا تنتظره أكثر من أن يرد ردّته ، حتى تغنى ما أعلمك إياه الساعة ، فإنه يقبل عليك ويصلك . ولست أبالى ألا يصلنى ، بعد أن يكون إقباله عليك .

ثم ألقى الموصلى على تلميذه مخارق لحنه :

يا دار سعدى بالجزع من ملل
حييت من دمنـــة ومن طـــلل

ثم جعل يردده ، حتى استطاع مخارق أن يأخذه منه . ثم انصرف من لدنه .

وفى الغد بكر عليه ، واستعاد الصوت ، واطمأن إلى أن مخارقاً قد أحسن أخذه وأتقن تأديته . ثم ركبا معاً إلى دار الرشيد ، ومخارق مشغول أثناء الطريق ، يدير الصوت فى نفسه ويدرسه .

حتى إذا كان مجلس الغناء ، وفرغ ابن جامع من غنائه ، اندفع مخارق فغنى الصوت الذى تلقاه ، فإذا شىء عجيب

رائع ، وإذا ابن جامع يصغى إليه وهو مبهوت ، والرشيد معجب به ، طرب له . فيسأله : لمن الصوت؟ فيقول مخارق : لإبرهيم ، فيستعيده منه ، ثم يستعيده مرة ومرة ، وهو يشرب عليه ، فإذا آذن المجلس بالانتهاء ، أمر لكل منهما بالجائزة ، وابن جامع يشغب ويقول :

— يجىء بالغناء فيدسه فى أستاه الصبيان ؟ إن كان محسناً فليغنه هو !

فيجيبه الرشيد بقوله :

— دع ذا عنك ! فقد — والله — استفاد منك ، وزاد عليك !

فنحن نستطيع أن نرى فى هذه القصة التى أوردناها عن صاحب الأغانى صورة مما كان عليه الأمر فى مجلس الغناء بقصر الرشيد ، كما نرى فيها صورة مما لا يزال دائماً من المغالبة بين جمال الصوت وجودة الفن ، وبهذا الصوت وحده — فيما يظن — استطاع رجل كابن أبى الكنات — ليس له فى الفن الموسيقى مكان مذكور — أن يكون من أهل الطبقة الأولى فى القصر ، وأن ينافس ابن جامع وإبرهيم المهدى ، ذلك أنه كان — كما يقولون — أطيب أهل زمانه صوتاً . بل كان فى طيب الصوت أحد ثلاثة يوصفون فى تاريخ الغناء العربى

بأنهم أحسن الناس حلوقاً : ابن تيزن ، وابن عائشة ، وابن أبى الكنات .

* * *

وكان مجلس الغناء يتحول فى بعض الأحيان إلى مجلس حديث عن الغناء ، ونظر فى أصوله ، ومجادلة فى نسبة الأصوات إلى أصحابها ، منذ قدم يحيى المكى من الحجاز ، وأحاط نفسه بجو يضطرب بالدعاوى العريضة عن معرفته الواسعة بالأصوات القديمة وأنسابها ، وكان لهذه الأصوات مكانها الممتاز فى مجالس الغناء . وقد وضع فى ذلك كتاباً ضمنه نحواً من ثلاثة آلاف صوت ، وأثار بذلك فى بيئات المغنين نوعاً جديداً من العلم ، يختصمون فيه ، ويتجادلون حوله ، ويرد بعضهم فيه على بعض . وكانت أصداء هذه الحركة الجديدة تتردد فى مجالس المغنين بقصر الرشيد . وكان بعض الحديث فى ذلك يتخذ لوناً من ألوان الكيد ليحيى المكى ، والغض منه ، وإحاطته بالشبه فى ذلك العلم الذى يسرف فى ادعائه . وقد نشأ بينه وبين إسحاق بن إبرهيم الموصلى بسبب ذلك شىء من خصومة . وقد جعل يتربص به ، ويرجو أن يوقع به فى مجلس الخليفة .

ويقصون فى ذلك قصة تذكرنا بما كان يدبره بعض الماكرين لبعض اللغويين المتطاولين فى الدعوى :

قالوا : إن إسحاق قال يوماً للرشيد ، قبل أن تصلح الحال بينه وبين يحيى المكى :

ـ أتحب يا أمير المؤمنين أن أظهر لك كذب يحيى فيما ينسبه من الغناء ؟

قال :

ـ نعم !

قال إسحاق :

ـ أعطنى أى شعر شئت ، حتى أصنع فيه ، واسألنى بحضرة يحيى عن نسبته ، فإنى سأنسبه إلى رجل لا أصل له ، واسأل يحيى عنه إذا غنيته ، فإنه لا يمتنع أن يدعى معرفته .

فأعطاه شعراً ، فصنع فيه لحناً وغناهالرشيد ، ثم قال له :

ـ يسألنى أمير المؤمنين عن نسبته بين يديه .

فلما حضر يحيى غناه إسحاق ، فسأله الرشيد :

ـ لمن هذا اللحن ؟

فقال له إسحاق :

ـ لغناديس المدينى .

فأقبل الرشيد على يحيى ، فقال له :

ـ أكنت لقيت غناديس المدينى ؟

قال :

— نعم ! لقيته وأخذت منه صوتين .

ثم غنى صوتاً ، وقال :

— هذا أحدهما .

فلما خرج يحيى حلف إسحاق بالطلاق ثلاثاً ، وعتق جواريه : إن الله ما خلق أحداً اسمه غناديس ، ولا سمع فى المغنين وغيرهم ، وأنه وضع الاسم فى وقته ذلك لينكشف أمره .

* * *

ويجعل صاحب التاج المغنين وأهل الموسيقى صنفاً من الندماء ، ويجعل مجالس الغناء والضرب نوعاً من مجالس المنادمة . وإن الأمر بينهما قريب . وما أكثر ما كان مجلس الرشيد يجمع بين الغناء وبين الإطراف بالأحاديث التى تعجب بطرافتها ، وما أكثر ما كان المغنى — ولا سيما إذا كان من هؤلاء الوافدين من الحجاز ، أو الذين كانوا متصلين بالبادية — يعدّ إلى جانب الصوت الذى يهيئه قصة يطرف بها الخليفة ، إذا رأى منه اقبالا عليه ، فلعل ذلك مما يزيد فى إقباله ، ويضاعف من جائزته ، كالذى يحكى مثلا عن إسماعيل بن الهربذ ، وهو مغنّ حجازى كان يقيم بين مكة والمدينة ، وكان ما يزال يفد إلى الشام أو العراق ، كما يصنع الشعراء ، ثم يكر راجعاً إلى بلده ، بعد أن يكون قضى حاجته ، وتزود بما يقيم حياته .

وقد وفد مرة على بغداد ، وقصد إلى قصر الرشيد ، وأدخل إلى مجلسه . وفى المجلس جماعة المغنين ، كإبرهيم وإسحاق وفليح ومن إليهم . والرشيد يومئذ خاثر به خمار شديد . فاندفع إسماعيل يغنيه بهذا الصوت ، مغنياً مادحاً معاً :

يا راكب العيس التى وفدت من البيت الحرام
قل للإمــام ابن الإما م أخى الإمام أبى الإمَام
زين الــبرية إذ بــدا فيهم كمصباح الظلام :
جعــل الإله الهــربذ ىّ فداك من بين الأنام

فاهتز الرشيد وطابت نفسه ، وطرب حتى استخفه الطرب . فلما رأى ابن الهربذ ذلك ، وعلم أنه استطاع أن يقع من الخليفة موقع الرضا والإعجاب ، قال له :

— يا أمير المؤمنين ! إن لهذا الصوت حديثاً . فإن أذن مولاى حدثته به .

فقال الرشيد :

— حدث .

قال :

— كنت مملوكاً لرجل من ولد الزبير ، فدفع إلى درهمين أبتاع له بهما لحماً ، فرحت ، فلقيت جارية على رأسها جرة مملوءة من ماء العقيق ، وهى تغنى هذا اللحن فى شعر غير هذا الشعر

على وزنه ورويه . فسألتها أن تعلمنيه ، فقالت : « لا وحق القبر ! إلا بدرهمين » ، فدفعت إليها الدرهمين وعلمتنيه . فرجعت إلى مولاى بغير لحم ، فضربنى ضرباً مبرحاً شغلت معه بنفسى فأنسيت الصوت . ثم دفع إلى درهمين آخرين بعد أيام أبتاع له بهما لحماً ، فلقيتنى الجارية ، فسألتها أن تعيد الصوت علىّ ، فقالت : « لا والله ! إلا بدرهمين » فدفعتهما إليها ، وأعادته على مراراً حتى أخذته . فلما رجعت إلى مولاى أيضاً ولا لحم معى ، قال : « ما القصة فى هذين الدرهمين ؟ » ، فصدقته القصة ، وأعدت عليه الصوت ، فقبل بين عينى وأعتقنى . فرحلت إليك بهذا الصوت » .

ومهما يكن من شأن هذه القصة فإنها تصور لنا على كل حال لوناً من الألوان التى كانت تداخل مجالس الغناء . وتبين لنا كيف كان المغنى يعود نديماً بالمعنى الخاص . وقد كان هذا شأن كثير من المغنين منذ القرن الأول : كذلك كان أشعب وطويس ومن إليهما ، وكذلك كان شأن كثير من المغنين فى قصر الرشيد على تفاوت بينهم .

بل لقد كان بين هؤلاء المغنين من كان بمنزلة أشعب فى أيام الأمويين : رجل غناء وصاحب نادرة معاً . وهو أبو صدقة مسكين بن صدقة المدنى ، فكان مكانه فى قصر الرشيد مكان

أشعب فى قصر الوليد مثلا . وكان — كما يقول أبو الفرج — « مليح الغناء ، طيب الصوت ، كثير الرواية ، صالح الصنعة . من أكثر الناس نادرة ، وأخفهم روحاً ، وأشدهم طمعاً ، وألحهم فى مسألة » . وهو فى كل هذه الصفات يعتبر نظير أشعب بن جبير ، بل لعله كان قد اتخذ منه مثالا يحذوه ، وإماماً يقتدى به .

ومن شخصيات قصر الرشيد من هذا القبيل ، وإن لم يكن من المغنين ، ابن أبى مريم المدنى ، وهو — كما يؤخذ من هذه النسبة — خرج من البيئة التى خرجت منها هذه الطائفة من أصحاب النوادر جميعاً ، سواء من كان من أهل القرن الأول أم من كان من أهل القرن الثانى . وكان — كما يصفه الطبرى — « مضحاكاً محداثاً فكيهاً . فكان الرشيد لا يصبر عنه ، ولا يمل محادثته . وكان ممن جمع إلى ذلك المعرفة بأخبار أهل الحجاز ، وألقاب الأشراف ، ومكايد المجان ، فبلغ من خاصته بالرشيد أن بوأه منزلا فى قصره ، وخلطه بحرمه وبطانته ومواليه وغلمانه » . ثم أورد الطبرى بعد ذلك شيئاً من نوادره . ونحن نسوق منها هذه النادرة ، لتصور لنا ذلك اللون من حياة القصر ، فيما نحن بصدده :

نهض الرشيد من نومه ذات ليلة ، وقد طلع الفجر ، وأراد

أن يقوم للصلاة ، فمر به ، فوجده نائماً ، فكشف اللحاف عن ظهره ، ثم قال له :

— كيف أصبحت ؟

قال ، وهو لا يزال فى غاشية النوم :

— يا هذا ! ما أصبحت بعد . ! اذهب إلى عملك .

قال الرشيد :

— ويلك ! قم إلى الصلاة .

قال :

— هذا وقت صلاة أبى الجارود ، وأنا من أصحاب أبى يوسف القاضى .

فمضى الرشيد عنه ، وتركه نائماً ، وتأهب للصلاة . فجاءه غلامه فقال : إن أمير المؤمنين قد قام إلى الصلاة ؛ فقام ، فألقى عليه ثياباً ، ومضى نحوه ، فإذا الرشيد فى صلاته ، وإذا هو يقرأ قوله تعالى : « ومالى لا أعبد الذى فطرنى ؟ » .

فقال أبو مريم :

— لا أدرى والله !

فما تمالك الرشيد أن ضحك فى صلاته ، ثم التفت إليه ، وهو كالمغضب ، فقال :

— يا ابن أبى مريم ! فى الصلاة أيضاً ؟

قال :

— يا هذا ! وما صنعت ؟

قال :

— قطعت على صلاتى .

قال ابن أبى مريم :

— ما فعلت . إنما سمعت منك كلاماً غمنى حين قلت : « وما لى لا أعبد الذى فطرنى » ! فقلت : لا أدرى والله !

فعاد الرشيد فضحك ، وقال :

— إياك والقرآن والدين ! ولك ما شئت بعدهما .

* * *

وبعد فهذه صورة من الحياة اللاهية فى قصر الرشيد من جوانب مختلفة ، لعلنا نستطيع أن نتمثل فيها ذلك الوجه من وجوه الحياة فى ذلك القصر ، وأن نتبين من خلالها مبلغ ما كان يثيره فى الحياة الفنية فى بغداد من نشاط وطموح .

٧

الصور التى عرضناها حتى الآن هى صور من حياة القصر العامة التى يتصل فيها الرشيد برعيته ، ممثلة فى الوزير والقائد ، والشاعر والعالم ، والمغنى والضارب ، والنديم والمضحك . ولكن هنالك من وراء هذه الحياة التى تواجه الناس من القصر ، على وجه ما ، حياة أخرى خاصة ، يخلص فيها الرشيد لنفسه ولحرمه ، ويخلع فيها رداء الملك ، ويتحلل من هذه القيود والأوضاع التى كان من أكثر الخلفاء – فيما نعرف – عناية بها ، والتزاماً لها ، وحرصاً عليها . وسنحاول فى هذا الفصل أن نتبين الخطوط الرئيسية لهذه الحياة ، قدر ما أتيحت لنا ، وأن نتعرف شيئاً من ألوانها وصورها ، فى حدود ما يمكن الثقة به ، والاطمئنان العلمى إليه .

وهذا الجانب من قصر الرشيد يتألف – بطبيعة الحال – من زوجاته وأمهات أولاده ، وجواريه وقيانه ، وأبنائه وبناته ، وإخوته وأخواته .

وقد تزوج الرشيد مراراً ، حتى بلغ عدد زوجاته ستاً . وإن كان لم يجتمع معه منهن غير النصاب الشرعى . .

وأولى زوجاته هى أم جعفر التى سبقت الإشارة إليها فى هذا الحديث غير مرة ، كما كانت تكنى ، وهى زبيدة بنت عمه جعفر بن أبى جعفر المنصور . تزوجها فى مطالع شبابه . قبل أن يلى الخلافة بخمس سنوات ، وقد عرفنا من قبل أنه كان عظيم الحب لها والوجد بها . وقد أنجب منها ولده محمداً « الأمين » فى السنة التى ولى الخلافة فيها .

ثم تزوج بعد الخلافة أمة العزيز . وكانت أول أمرها جارية للربيع بن يونس ، وقد مر طرف من الحديث عنه . وكانت — فيما توصف به — فائقة الجمال ، ناهدة الثديين ، حسنة القوام . فأراد أن يؤثر بها الخليفة المهدى ، فأهداها إليه . ولكن المهدى حين رأى جمالها وهيئتها ، آثر بها ابنه موسى ، فوهبها له ، فكانت — كما يقولون — أحب الخلق إليه ، وأصبحت عنده أم ولد ، وقد أنجب منها بنيه الأكابر ، ومنهم جعفر الذى كان يرشحه لولاية العهد بدلا من أخيه هارون . فلما مات عنها ، بادر الرشيد فتزوجها ، وأنجب منها ابنه علياً .

وفى سنة ١٨٧ ، بعد أن فرغ الرشيد من نكبة البرامكة ، وعاد إلى الرقة ، تزوج اثنتين فى وقت معاً . هما بنتا عميه ، وبنتا عمى زوجته الأولى زبيدة : صالح المسكين ، وسليمان .

أما إحداهما فأم محمد بنت صالح المسكين بن أبى جعفر . وكانت عباسية الطرفين ، إذ كانت أمها بنت على بن عيسى ، ابن عم المنصور ، وكانت قد عقد زواجها من إبرهيم بن المهدى ، ولكنها لم تلبث أن اختلعت منه ، وفسخ عقد الزواج ، فرأى أخوه الرشيد أن يتزوجها .

وأما الأخرى فهى العباسة بنت عمه أبى أيوب سليمان بن المنصور ، وكان إذ ذاك والياً على الرقة .

وبذلك جمع الرشيد فى داره بين ثلاث من بنات أعمامه .

ثم تزوج عزيزة بنت الغطريف . وكذلك كانت تمتّ إليه بصلة قريبة ، بل أكثر من صلة ، إذ كان أبوها الغطريف أخا الخيزران ، وإذن فهى ابنة خاله ، ثم كانت قبل أن يتزوجها زوجة لعمه وحميه سليمان بن أبى جعفر ، ثم طلقها ، فخلفه هو عليها .

وآخر زوجاته الجرشية ، وقد عرفت بهذا الاسم واشتهرت به ، لأنها ولدت بجرش فى اليمن . وهى عثمانية علوية ، فهى ابنة عبدالله بن محمد بن عبدالله بن عمرو بن عثمان بن عفان . وكانت جدة أبيها فاطمة بنت الحسين بن على ، تزوجها عبدالله بن عمرو بن عثمان . بعد أن مات عنها زوجها الأول وابن عمها الحسن بن الحسن .

فهؤلاء هم أزواج الرشيد وقد مات عن أربعة منهن : هن بنات أعمامه الثلاث ، أم جعفر ، وأم محمد ، والعباسة ، ثم الجرشية .

وقد رأينا أنه لم يعقب من هؤلاء الأربعة إلا من زبيدة أم محمد (الأمين) ، كما لم يعقب من غيرهن إلا من أمة العزيز التى جاءت له بابنه على بن الرشيد . أما سائر أولاده فكانوا من جواريه الذين صاروا — بعد أن ولدوا له — أمهات أولاد ، وهن :

مراجل : أم عبدالله (المأمون) ، وماردة : أم محمد (المعتصم) ، ورئم : أم صالح ، وقصف : أم القاسم (المؤتمن) وأخته سكينة ، وعرابة : أم محمد أبى عيسى ، وشذرة : أم محمد أبى يعقوب ، وخنث : أم محمد أبى العباس ، ورواح : أم محمد أبى سليمان ، ودواج : أم محمد أبى على ، وكتمان : أم محمد أبى أحمد ، وخلوب : أم محمد أبى أيوب وأخته أروى ، وعرابة : أم أم الحسن ، وغصص واسمها مصفى : أم حمدونة وأختها فاطمة ، وسكر : أم أم أبيها ، ورحيق : أم أم سلمة ، وسحر : أم خديجة ، وحذق : أم أم القاسم ، وحلى : أم رملة ، وأنيق : أم على ، وسمندل : أم الغالية ، وزينة : أم ريطة .

فقد كانت أسرة الرشيد — كما نرى — أسرة كبيرة ، ولكنها كانت تتألف فى معظمها من هؤلاء الجوارى اللواتى حشد بهن القصر ، وصار لهذا العدد الكبير منهن حرمة فوق حرمة الولاء ، هى حرمة أمهات الأولاد ، ثم من هؤلاء الأولاد الذين جاء كل منهم من إحدى هؤلاء .

ولعلنا نستطيع أن نضيف إلى هذه الأسرة أخواته الثلاث : علية والعباسة وأسماء ، وأخاه ابن المهدى الذى كان صبياً لم يكد يتجاوز الثامنة من عمره ، حين ولى الرشيد الخلافة .

وأسرة الرشيد هذه تكون الشطر من ذلك الجانب من قصره الذى كان يطلق عليه «الحرم» ، أما الشطر الآخر فيتكون من ذلك العدد الضخم من الجوارى والقيان اللواتى لم يبلغن أن يكن أمهات أولاد .

* * *

وكانت علاقة الرشيد بأسرته هذه مختلفة بطبيعة الأمر . أما زوجاته فقد ظلت أم جعفر أحبهن إليه ، وآثرهن عنده . ولسنا ندرى الظروف التى تزوج فيها زوجاته الأخريات ، ولكن هذا التعديد فى الزواج لم يكن إذ ذاك — على كل حال — أمراً منكراً ، بل ربما كان مظهراً من مظاهر الترف .

وأما علاقته بأبنائه . فيبدو أنها كانت — فى الجملة — خاضعة

لذلك الاعتبار الذى تخضع له العلاقات فى القصور بين الملوك وأبنائهم ، على النحو الذى يعبر عنه صاحب كتاب التاج بقوله : « ومن حق الملك أن يعامل ابنه كما يعامل عبده ، وألا يدخل مداخله إلا عن إذنه ، وأن يكون الحجاب عليه أغلظ مما على من هو دونه من بطانة الملك وخدمه ، لئلا تحمله الدالة على غير ميزان الحق » .

وكان أبناء الرشيد الذكور ثلاثة عشر ولداً : الأمين ، والمأمون ، والقاسم ، والمعتصم ، وعلى ، وصالح ، وأبو عيسى ، وأبو يعقوب ، وأبو العباس ، وأبو سليمان ، وأبو على ، وأبو أحمد ، وأبو أيوب . وكان أكبرهم الأمين والمأمون ثم القاسم والمعتصم . وقد كانت سن المعتصم هذا يوم مات أبوه أربعة عشر عاماً .

وهكذا نرى أن معظم أبناء الرشيد كانوا فى قصر الرشيد أطفالا تكفلهم أمهاتهم ، وقد نشأ كثير منهم نشأة فنية رقيقة بتأثير تلك البيئة الخاصة ، فهو يقول الشعر ويصنع الألحان ويغنى بها ، كما كان أبو عيسى ، وأبو أيوب . ولم يكن منهم من بلغ مبلغ الرجال فى القصر إلا الأمين والمأمون ، وأما القاسم فقد جعله أبوه منذ مضى إلى الرقة سنة ١٨٠ فى حجر عبدالملك ابن صالح ، ومن ذلك كان هو الذى أغرى الرشيد أن يجعل

له فى ولاية العهد نصيباً ، بعد أن كان عقدها لابنيه الأمين والمأمون ، وكانا إذ ذاك فى سن السادسة عشرة .

ومنذ ذلك العهد أخذت علاقة الرشيد بابنيه هذين تخضع لذلك الاعتبار الذى ذكرنا ، ولا سيما بعد أن أصبحت نفسه مسرحاً للاضطراب والقلق على الصورة التى رأيناها فيما سبق ، فكان شديد الحذر كثير التوجس ، يرى فى ابنيه هذين عدوًّا يترصد له : يستطيل عمره ، ويتربص به الدوائر ، ويتمنى له الموت . كما نرى ذلك فى هذا الحديث الذى كان يتحدث به إلى أحد خدمه المخصوصين به ، وهو صباح الطبرى ، إذ يقول فيما يقول — وهو يستروح بالحديث إليه — : « . . ولكل واحد من ولدى على رقيب ، فمسرور رقيب المأمون ، وجبريل ابن بختيشوع رقيب الأمين . . . وما منهم أحد إلا وهو يحصى أنفاسى ، ويعد أيامى ، ويستطيل عمرى » .

وهكذا نرى أن الأمور فى القصر من هذه الناحية كانت هى أيضاً خاضعة للدسائس ، تنساب بينها ، وتنفث سمومها ، مغمورة بالحذار والخوف والتوجس ، تسيطر عليها ، وتشيع الفساد فيها .

* * *

أما الشطر الآخر من حرم القصر فيتألف — كما قلنا —

من الجوارى والقيان . وكان نزوع الرشيد إلى اللهو ، وافتتانه بألوان الترف ، مما جعله مشغوفاً أشد الشغف بأن يجمع فى قصره منهن أكثر ما يستطيع ، حتى ليمكن القول بأن عددهن فى القصر كان لا يقل عن ألفى جارية ، منهن القيان المغنيات ، ومنهن الضاربات الحاذقات ، ومنهن الوصيفات الخبيرات بالخدمة ومجالس الشراب ، ومنهن من أردن للزينة ، فاكتفى بجمالهن الرائع ، وحديثهن البارع ، وخلابتهن القوية النفاذة . وكان الرشيد سخى النفس بأثمانهن . وقد بلغت قيمة إحدى الجوارى القيان اللواتى كن يشترين له — وكانت خريجة دار إبرهيم الموصلى كما كان شأن أكثر هؤلاء القيان — ستة وثلاثين ألف دينار .

وقد خلدت الأخبار أسماء كثير من هؤلاء الجوارى اللواتى استطعن أن يخلبن الرشيد ويغلبنه على أمره ، كهؤلاء الجوارى الثلاث اللواتى استهداهن — أو أهدين إليه — من الفضل بن الربيع . وكانت هذه الوسيلة — فيما يظهر — من الوسائل التى كان الفضل يصطنعها لاستهواء الرشيد والغلبة عليه ، وكذلك كان أبوه الربيع من قبل ، حين قدم إلى المهدى جاريته الرائعة الفائقة الجمال ، أمة العزيز ، هدية له ، كما عرفنا .

وقد قالوا إن الفضل بن الربيع دخل على الرشيد ذات يوم ،

وإبرهيم يغنيه ، « وبين يديه جارية عليها قميص مورد ، وسراويل موردة ، وقناع مورد ، كأنها ياقوتة على وردة » . فجعل يحدثه عن هؤلاء الجوارى الثلاث اللواتى أتحن له ، وأخذ يصف محاسنهن وفتنتهن ، ويسرف فى نعتهن بالحسن والإحسان والظرف والأدب ، حتى تطلعت رغبة الرشيد إليهن ، وتوثبت نحوهن ، فقال له :

— يا عباسىّ ، هل تسخو نفسك بهن ؟ وهل لك من سلوة عنهن ؟

فقال له الفضل :

— والله ، يا أمير المؤمنين ، إنى لأسخو بهن وبنفسى ، فيها فداك الله !

ثم قام فوجه بهن إليه ، فغلبن على قلبه ، وسيطرن عليه فترة ، وهن : سحر ، وضياء ، وخنث . وهؤلاء هن « الثلاث الآنسات » اللواتى قال فيهن الأبيات المشهورة ، على ما يذهب إليه أكثر الرواة :

ملك الثلاث الآنسات عنانى   وحللن من قلبى بكل مكان
مالى تطاوعنى البرية كلها   وأطيعهن وهن فى عصيانى ؟
ما ذاك إلا أن سلطان الهوى   —وبه قوين—أعز من سلطانى

وفى شعر آخر ينسب إلنه أيضاً ، سماهن ، وفاضل



« كان الرشيد ينزع إلى اللهو ويفتن بألوان الترف حتى جمع
فى قصره ما لا يقل عن ألفى جارية »

(انظر صفحة ١١٣)

بينهن ، وذلك إذ يقول :

إن سحرا وضيــاء وخنث   هن سحر وضيــاء وخنث
أخذت سحر – ولا ذنب لها –   ثلثى قلبى ، وتربا ها الثلث

ويذكرون عن سحر هذه التى كادت تستبد بقلب الرشيد ، إذ استولت وحدها على ثلثيه ، أنها كانت تدل عليه ، وربما اعتلت فى بعض الأحيان عنه ، لتزيد من حبه لها ومنزلتها عنده ، كما ينسبون إليه أبياتاً من الشعر يذكر فيها هذا الإدلال ، فيقول :

أيا من رد ودى أمـ   ـس لا أعطيكه اليوما
ولا – والله – لا أعطيـ   ـك إلا الصد واللوما
وإن كان بقلبى منـ   ـك حب يمنــع النوما
أيا من سمته الوصــل   فأغلى المهر والسوما

ومهما يكن من أمر هذا الشعر ، وسواء قاله الرشيد أم قيل على لسانه ، تصويراً لشأنه ، فإنه أشبه أن يكون تصويراً صادقاً أو – على الأقل – مقارباً .

وأما خنث الملقبة بذات الخال ، فهى أشهر الثلاثة ، من قبل أن تصير إلى القصر . إذ كانت قبل ذلك جارية عند أحد هؤلاء المقيّنين ، وكانت رائعة الصورة ، فتانة الدل ، بارعة الغناء ، فوقع فى هواها كثير من رواد دار ذلك المقين ، ثم

أتيح لها أن يولع بها بعض الشعراء ، فيقال فيها الشعر ويتغنى به ، فكان ممن فتن بها العباس بن الأحنف ، وفيها قال هذه القطعة من الشعر التى كان بعضهم يقول : إن تقسيماتها أحسن من تقسيمات اقليدس :

ألا ليت ذات الخال تلقى من الهوى
عشير الذى ألقى فيلتئم الشعب
إذا رضيت لم يهننى ذلك الرضا
لعلمى به : أن سوف يتبعه عتب
وأبكى إذا ما أذنبت خوف صدها
وأسألها مرضاتها ، ولها الذنب
وصالكم صرم ، وحبكم قلى ،
وعطفكم صد ، وسلمكم حرب

كذلك كان ممن أولع بها إبرهيم الموصلى ، وكفى ذلك لتستطير شهرتها ؛ فهو شاعر مغن . وقد قال فيها كثيراً من المقطوعات ، وجعل يفتن فى تلحينها والتغنى بها .

ومن جوارى القصر اللواتى غلبن على الرشيد ، وخلدت الأخبار فى ذلك أسماءهن : ماردة . وكانت أم ولده المعتصم كما رأينا قبل ، كما كانت من آثر جواريه عنده ، وأشدهن استثارة لحبه .

ومما يقصون عن علاقة الرشيد بها أنه خلفها بالرقة فى إحدى رحلاته إلى بغداد ، ولكنه لم يلبث أن اشتاق إليها ، فكتب إليها بهذه الأبيات الرقيقة ، يشكو شوقه ، ويعبر فيها عن نفسه المتجملة ، إذ يقول :

سلام على النازح المغترب تحية صب به مكتئب
غزال مراتعــه بالبليـ ـخ إلى دير زكى فجسر الخشب
أيا من أعـــان على نفسه بتخليفه طائعاً من أحب
سأستر ، والستر من شيمتى هوى من أحب بمن لا أحب

فلما ورد كتابه هذا عليها ، رغبت إلى أبى حفص الشطرنجى الشاعر ، صاحب علية (وقد مضت الإشارة إليه) ، أن يضع لها أبياتاً تجيب بها الرشيد ، فكتب لها هذه الأبيات ، فجعلتها جوابها ، وبعثت إلى الرشيد بها :

أتانى كتابك يا سيـــدى وفيه العجائب كل العجب
أتزعم أنك لى عاشق ؟ وأنك بى مستهام وصب ؟
فلو كان هذا كذا لم تكن لتـــتركنى نهزة للكرب
وأنت ببغـــداد ترعى بها نبات اللذاذة مع من تحب
فيا من جفانى ، ولم أجفه ويا من شجانى بما فى الكتب
كتابك قـــد زادنى صبوة وأسعر قلبى بحر اللهـــب
فهبنى نعم قد كتمت الهوى فكيف بكتمان دمع سرب

ولولا اتقاؤك يا سيدى لوافتك بى الناجيات النجب

وقد كان لهذه الرسالة أثرها ، فإن الرشيد لم يلبث أن قرأها حتى أنفذ من وقته خادماً على البريد إلى الرقة حتى حدرها إلى بغداد فى الفرات . ثم أمر مغنى القصر أن يلحنوا تلك المقطوعة من شعره التى بعث بها إلى ماردة . فافتنوا فى تلحينها . حتى لقد لحنها بعضهم على أكثر من وجه ، كما صنع إبرهيم الموصلى ، وأخذوا يغنونها بتلك الألحان المختلفة ، وجعلت أرجاء القصر تتجاوب بأصداء تلك العاطفة القوية التى صاغها الرشيد شعراً ، ثم أبى إلا أن تصاغ فوق ذلك فى ألحان وغناء وموسيقى . أكان الرشيد يلتمس بذلك كله حاجة قلبه إلى التعبير الكامل عما يحسه ، حين رأى تلك الأبيات وحدها قاصرة عن أن تعبر عنه ؟ أم كان يريد أن يحيط نفسه بجو يستطيع أن يصرفه بعض الشىء عن هذا الذى يجده ويضطرم به ؟ لقد جعلها مباراة بين المغنين فى ظاهر الأمر ، ولكن نفسه كانت تلتمس شيئاً آخر فى تباريهم وتنافسهم وصياغتهم الألحان المختلفة .

مثل هذه الأخبار التى سقناها عن بعض الأثيرات من جوارى الرشيد يصور لنا شيئاً من ألوان الحياة فى الحرم ، كما يبين لنا أشياء عن طبيعة العلاقات التى كانت تربط بين الرشيد وجواريه اللواتى يختصهن بحبه . ولعلنا نستطيع أن نرى فيه إنساناً يحب

ويعشق وتملك العاطفة عليه أمره ، لا شخصاً يلتمس متعه ومطالب شهواته فحسب . وإنا لنستطيع أن نرى هذا الحب فى مشهد آخر من مشاهد القصر . وذلك حين اخترمت إحدى صواحبه من هؤلاء الجوارى ، وهى هيلانة . لقد غلب الحزن عليه غلبة شديدة ، بل غلب على القصر كله وجللته معانى البكاء . وقد رأى شعراء القصر ذلك ، وأحسو إحساساً قوياً بالفجيعة التى تغمره ، فأقبلوا على الرشيد يعزونه ، وجلس هو يتقبل العزاء منهم . وجعل بعضهم — ولعل ذلك كان بإشارة منه — يصنع على لسانه الشعر الباكى الحزين ، يعبر عن فجيعته فى هيلانة ، وجعل هو يستروح لذلك الشعر الذى كان ينفس عنه ، كما جعل يكافئ أصحابه عليه . وقد وصل إلينا من ذلك الشعر شىء ، وإن كان بعضه جاء منسوباً إليه ، كهذه المقطوعة :

أف للدنيــا وللزيـ ـنة فيها والأثاث
إذ حثــا الترب على هيـــلان فى الحفرة حاث

على أن من ذلك الشعر ما قدم فى صراحة بأنه قيل على لسان الرشيد ، كقول أبان بن عبد الحميد اللاحقى :

بت ضجيع الحزن ما أغفى لحادث جــل عن الوصف
حزنان : حزن منهما ظاهر وأوجع الحزنين ما أخفى

أنت أهلت الترب من فوقها مواريا تحت الثرى إلفي
لهــفى على هيلان ! لو أنه يرد شيئاً فائتاً « لهفى ! »

* * *

وبعد : فهكذا كانت عاطفة الرشيد الحادة ، وحيويته الدافقة ، مما يسبغ على تلك الناحية من القصر جواً يفيض بالحب ، تتمثل فيه مشاعره التى تجد وتشكو وتشتاق وتأسى ، حين كانت هذه المشاعر تظهر فى مثل تلك الصور . كما يتمثل فيه نزوعه القوى إلى الاستمتاع بالجمال فى مختلف أشكاله استمتاعاً خالصاً .

فلا جرم كان يجد هنا ، فى الحرم ، ما لا يجده فى مجالس الغناء والمنادمة ، فهنا يستطيع أن يخلص من القيود والحدود والرسوم والسنن التى لا بد من التزامها ورعايتها أدق الرعاية هناك ، وهنا يستطيع أن يأمن شر الرياء والنفاق والالتواء الذى لا بد أن يداخل تلك المجالس ، على درجات متفاوتة . وإن كان لكل — فى حقيقة الأمر — طعم خاص فى نفسه لا يملك الغناء عنه أو الاكتفاء بأحدهما عن الآخر .

فهو هنالك الرشيد أمير المؤمنين وخليفة المسلمين وصاحب السلطان ، وهو هنا هارون الرجل المترف الذى أتيحت له هذه الأسباب والوسائل المختلفة للتعبير عن رغباته ، وتحقيق أهوائه

وشهواته . ومشاعره مترددة بين هاتين الناحيتين ، فهو محتاج إلى أن يرضى إحساسه بالملك والإمارة والسلطان ، ومحتاج كذلك إلى أن يحقق إحساسه بنفسه مجرداً عن كل ذلك . ومن هذا كانت حياته اللاهية مقسمة بين هذه المجالس التى يجلس فيها إلى الندماء والمغنيين ، مطبوعة بالطابع الرسمى ، وبين مجالسه فى حرمه ، وبين أهله وأزواجه وجواريه . طليقاً من كل تلك القيود ، محققاً لنفسه أكبر حظ من المتعة بهذا الانطلاق أولا ، ثم بما يتاح له فيها من وفرة أسباب المتعة ووسائل اللذة ، والإفتنان فى إرضاء مشاعره كلها ، واختلاب أهوائه جميعاً .

ونستطيع أن نتمثله من بعض الأخبار التى يقصها صاحب الأغانى عن حياته هذه ، جالساً فى روضة من رياض القصر إلى جارية أهديت إليه أو اشتريت له ، ممشوقة القوام ، رائعة الجيد ، صبوح الوجه ، ساحرة الطرف ، شيقة الحديث ، يتعاطيان الهوى والصبوح معاً . ومن دونهما طائفة من الجوارى المقدودات الممشوقات ، يعددن الشراب ويدرن به ، فى خفة ورشاقة وعذوبة روح . وفى تجاه هذا المجلس الذى يرفرف الهوى عليه ، وتسرى النشوة فيه ، طائفة كبيرة رائعة منسقة من القيان والوصائف ، الضاربات بالعود ، اللاعبات بالطنبور ، الناقرات بالدف ، المغنيات بالهزج والرمل ، الراقصات أنواع

الرقص . والرشيد وصاحبته يشربان الصبوح ويتساقيان الهوى ، على أصوات العيدان ، وغناء القيان ، ورقص الوصائف .

فهذه صورة من حياة الرشيد فى الحرم ، وصور هذه الحياة كثيرة ، نكتفى منها بما أوردنا .

° ° °

وذلك هو قصر الرشيد ، لعل فيما قدمنا ما يمثله أمامنا فى صورة واضحة ، تظهر معالمه ، وتبرز شتى نواحيه وجهاته . ونرجو أن يكون قد أتيح لنا ما التزمناه فى هذا الحديث وأخذنا أنفسنا به ، من التوفيق بين الرغبة فى إبراز الصورة بألوانها وشياتها وظلالها ، وبين روح العلم ورعاية حق الضمير العلمى علينا ، فى التزام الدقة ، والوقوف عند حدود الحقيقة .

روضة الطفل

١ أرنبو والكنز
٢ كتكت المدهش
٣ عيد ميلاد فلّة
٤ فرفر والجرس
٥ ذيل الفأر
٦ البطة السّوداء



ثمن النسخة
٧ ملّيم

أول مجموعة من نوعها باللغة العربية يجد الطفل فيها قصصًا مفيدة مزينة بالصّور المبتكرة ومطبوعة بالألوان الجميلة

المجموعة الجديدة بأن توضع بين يدى كل طفل لتصعد به إلى الدّرجة الأولى من سلّم المعرفة فى جوٍّ من المتعة والتسلية ....

تصدرها دار المعارف بمصر

بمعاونة السيدة أمينة السعيد والدكتور يوسف مراد والأستاذ سيد قطب

مكتبة الأطفال

للأستاذ كامل كيلانى

مجموعة نفيسة تحتوى على أكثر من أربعين كتاباً مصوراً . وقد فازت بإعجاب رجال التربية والتعليم وبرضى الجمهور واستحسانه فى جميع البلاد العربية .

المكتبة الحديثة للأطفال

للأستاذ محمد عطية الإبراشى

مجموعة قصص عذبة اللغة ، جميلة التصوير روعيت فيها ميول الأطفال وأحدث النظريات فى التربية وعلم النفس

قسيمة الإجابة رقم ٢١٠٧٠

عن السؤال الأول

ما رأيك فى سلسلة « اقرأ » وهل أدت إلى اليوم رسالتها ؟

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

التوقيع ....

الاسم بالخط الواضح ....

العنوان الكامل ....

احتفظ بهذه القسيمة وأرسلها مع القسيمة التى ستجدها فى الكتاب الذى سيصدر فى أول فبراير ١٩٤٩ إلى دار المعارف بمصر بعد الإجابة عن السؤال المطروح عليك فى كل منهما .

اقرأ تفتتح عامها السابع

بجائزة مالية كبيرة قدرها ١٠٠ مئة جنيه مصرى

تدخل سلسلة اقرأ في أول يناير ١٩٤٩ فى عامها السابع شاكرة للقراء جميل إقبالهم وحسن تشجيعهم .

ولما كانت هذه السلسلة تصبو دائماً إلى الكمال فقد رأت أن تستفق قراءها فى وجوه التحسين وتهدى إلى واحد من هؤلاء القراء يعينه الاقتراع جائزة مالية قدرها مئة جنيه مصرى

شروط الاشتراك

١) المطلوب من القارئ أن يجيب عن سؤالين : الأول مدرج فى ظهر هذه القسيمة المرفقة بكتاب يناير ١٩٤٩ ، والثانى سيدرج فى قسيمة أخرى ترفق بكتاب فبراير ١٩٤٩ .

٢) تكتب الإجابة على القسيمتين المذكورتين وترسلان معاً فى ظرف واحد مكتوب عليه « جائزة اقرأ » إلى دار المعارف بمصر ٧٠ شارع الفجالة على أن تصلها قبل تاريخ ١٥ فبراير ١٩٤٩

٣) تفرز الإجابات ويختار أحسنها ويقترع بينها على الفائز وتنشر النتيجة فى الكتاب الذى سيصدر فى أول مارس ١٩٤٩ من سلسلة اقرأ .

الفهرس

تنويه: هذا الفهرس ليس من أصل الكتاب ؛ وإنما أعددته تسهيلاً للوصول الى المواضيع . م. سرمد حاتم شكر السامرائي